التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأنبار
كلية العلوم الإسلامية
قسم العقيدة والدعوة والفكر

التصوف والأخلاق

المادة المقررة للمرحلة الأولى/ قسم العقيدة والدعوة والفكر

جمع وإعداد

الأستاذ المساعد الدكتور

أيسر فائق جهاد الحسني الآلوسي

التدريسي في قسم العقيدة والدعوة والفكر

القسم الأول

التصوف

تمهيد

العلاقة بين التصوف والأخلاق

مر التصوف في الإسلام بمراحل متعددة وتواردت عليه ظروف مختلفة واتخذ تبعاً لذلك مفاهيم متعددة، ولذلك كثرت تعريفاته وكل تعريف يشير إلى بعض جوانبه دون البعض الآخر، ولكن يظل هناك أساساً واحداً للتصوف لا خلاف عليه وهو أنه أخلاقيات مستمدة من الإسلام، وهذا ما أشار إليه ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين بقوله: ((واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخُلُق)).

إذن التصوف في أساسه خُلُق، وهو بهذا الإعتبار روح الإسلام، لأن أحكام الإسلام كلها مردودة إلى أساس أخلاقي، ذلك أننا إذا نظرنا إلى القرآن الكريم فسنجده قد جاءنا بأنواع مختلفة من الأحكام الشرعية وهي تندرج بوجه عام تحت ثلاثة أقسام رئيسية: (العقائد، والفروع من العبادات والمعاملات، والأخلاق)، وناحية الأخلاق في القرآن الكريم وردت فيها آيات كثيرة تحث عليها بلغت ثلث القرآن، والحقيقة أن أخلاق الإسلام هي أساس الشريعة بحيث إذا افتقرت أحكام الشريعة إلى الأساس الخُلُقي سواء في الأحكام الإعتقادية أو الفقهية كانت صورة لا روح فيها أو هيكلاً فارغاً من المضمون.

إن أهم ما ينبغي أن يفهم عليه الدين أنه في جوهره أخلاق بين العبد وربه، وبينه وبين نفسه، وبينه وبين أسرته، ثم بينه وبين أفراد مجتمعه، ولكي يتبين لنا ذلك في وضوح وجلاء بأن أحكام الشريعة كلها مردودة إلى أساس أخلاقي نذكر ما يأتي:

مثلاً أحكام الإيمان، فالإيمان بالله تعالى ووحدانيته تنافيه أخلاق الحرص والجزع وعبادة المال واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وينافيه اتكال العبد على الخَلق دون الخالق، وقهر اليتيم وقساوة القلب وانعدام الأمانة، فالإنسان إن لم يطرح هذه الأخلاق المذمومة من نفسه لا يكون إيمانه كاملاً صحيحاً.

ويبين لنا الرسول ﷺ هذا المعنى العميق للإيمان في كثير من أحاديثه منها:

-قوله ﷺ : (**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**).

-وقوله ﷺ : (**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً**).

-وقوله ﷺ : (**خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخُلُق**).

وكذلك في جميع عبادات الإسلام ومعاملاته ما لم تقم هذه العبادات والمعاملات على أساس أخلاقي لا يكون لها قيمة أو فائدة، ولا تكون مقبولة عند الله تعالى، فمثلاً الصلاة نجدها في الإسلام طهارة النفس وترقيقاً للقلب وتحلية الإنسان بفضائل الهيبة والخشوع والمشاهدة والمراقبة والمناجاة مع الله تعالى والأنس به وبدون هذه المعاني تكون الصلاة هيكلاً فارغاً من المضمون. وهكذا الزكاة والصوم والحج كلها تحمل معاني أخلاقية في أدائها.

وكذلك معاملات الإسلام كلها لها قواعد أخلاقية معينة يجب أن يراعيها المسلم في تعامله مع أفراد المجتمع فلا استغلال ولا احتكار ولا غش.

إذن يتبين لنا مما تقدم أن جوهر الدين هو الأخلاق وهذا المعنى ندركه بعمق في قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيم** ﴾ . وفي قوله عليه الصلاة والسلام: (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)، والإسلام رسم لنا طريق التحقق بالكمال الأخلاقي الذي دعا إليه فأمرنا بجهاد النفس بتخليتها من مذموم الأخلاق وتحليتها بالأخلاق المحمودة، وهذه لا تتحقق بمجرد سن القوانين والعقوبات وإنما يتحقق إذا توفرت الرغبة لدى الأفراد في التغيير، قال تعالى: ﴿ **إنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بِقَومٍ حتّى يُغَيِّروا ما بِأنفُسِهِم** ﴾، لذلك أدرك السادة الصوفية أهمية الأساس الأخلاقي للدين فجعلوا إهتمامهم موجهاً إليه وذهبوا إلى أن أي علم من العلوم لا يقترن بالخشية من الله تعالى والمعرفة به فلا جدوى منه، فما أكثر ما تجد من العلم في الكتب بحيث يسهل عليك تحصيله، أما الأخلاق فتحصيلها عسير، لأنها تكون ثمرة ممارسة شاقة وصراع بين الإنسان ونفسه الأمارة بالسوء ليلزمها جادة الصواب.

ومن هذا يتبين لنا أن التصوف في الإسلام كعلم ديني يختص بجانب الأخلاق والسلوك وهو روح الإسلام.

الفصل الأول

تعريف التصوف ونشأة التسمية

أولاً: تعريف التصوف:

١ -المعنى الإشتقاقي للفظ (تصوف) و (صوفي):

إن لفظ (تصوف) و (صوفي) من الألفاظ الشائعة التي تتداولها الألسن، والمعنى الإشتقاقي لهذين اللفظين لم يكن موضع اتفاق بين الكتّاب والمؤرخين أو الباحثين والدارسين في مجال التصوف الإسلامي ، وهناك من الباحثين من حاول استقصاء هذه المعاني، وسنحاول إلقاء الضوء على هذه المسألة.

كما أنه من الواضح أن هذا اللفظ لا يوجد في القرآن الكريم والسنة النبوية ما يشير إليه ، كما أنه لم يتسم بهذه التسمية طائفة على عهد رسول الله ﷺ وقد أدّى هذا إلى التساؤل عن بداية استخدام هذه اللفظة وأول من سمي بها ؟ وهذا ما سنبينه فيما يأتي في موضوع نشأة التسمية.

أما اشتقاق هذه التسمية (تصوف) و (صوفي) ففيها أقوال كثيرة وهي كالآتي:

- فمنهم من قال: **من الصوفة،** لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة، لاستسلامه لله تعالى .

- ومنهم من قال : **إنه من الصفَة،** إذ جملته اتصاف بالمحاسن، وترك الأوصاف المذمومة.

- ومنهم من قال : **من الصفاء،** حتى قال أبو الفتح البستي (رحمه الله)

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقاً من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صفا فصوفي حتى سمي الصوفي

وقال بشر الحافي (ت٢٢٧هـ) رحمه الله: ((الصوفي من صفا لله قلبه)).

وقال أبو الحسن النوري (ت٢٩٥هـ) رحمه الله: ((الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفوس وتحللوا من شهواتهم)).

وقال سهل بن عبدالله التستري (ت٢٩٧هـ) رحمه الله: ((الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر)).

وقيل: الصوفي مركب من حروف أربعة (الصاد والواو والفاء والياء):

فالصاد: صبره وصدقه وصفاؤه.

والواو: وجده ووده ووفاؤه.

والفاء: فقده وفقره وفناؤه.

والياء: ياء النسبة وإذا اكتمل فيه ذلك سمي صوفي.

ـ ومنهم من قال : **من الصُفَّة**، لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف إذ قال تعالى : ﴿ **وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨** ﴾.

وأهلُ الصُفَّة هم الرعيل الأول من رجال التصوف، فقد كانت حياتهم التعبدية الخالصة المثل الأعلى الذي استهدفه رجال التصوف في العصور الإسلامية المتتابعة.

ـ وقيل: **من الصفوة**، كما قال الإمام القشيري.

ـ وقيل : **من الصف**، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله تعالى ؛ وتسابقهم في سائر الطاعات.

ـ ومنهم من قال : **إن التصوف نسبة إلى لبس الصوف الخشن**، لأن الصوفية كانوا يؤثرون لبسه للتقشف والاخشيشان، إذ أنه كان لباس الفقراء والزهاد وهذا القول ذهب إليه بعض مؤرخي التصوف ، يقول السراج الطوسي (ت٣٧٨هـ) رحمه الله: ((نُسِب الصوفية إلى ظاهر اللبس ، لأن لبس الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء)).

وقد كانت دلالة لبس الصوف على الزهد والعبادة مُسَلَّماً بها لدى المسلمين الأوائل وفي ذلك يقول الكلاباذي (ت٣٨٠هـ): ((ومن لبسهم وزيهم سموا صوفية، لأنهم لم يلبسوا ما لان ملمسه وحسن منظره ، وإنما تحرّوا الخشن من الشعر والغليظ من الصوف)).

وبعد هذه الإشارة الموجزة لنماذج من أقوال الصوفية والمؤرخين حول الإشتقاقات الممكنة للفظي (التصوف ، وصوفي) ، فإنه ينبغي أن نشير هنا إلى ما ذكره أحد الصوفية الذين كتبوا في التصوف وأرخوا له وهو أبا القاسم القشيري (ت٤٦٥هـ) إذ قال: ((وليس يشهد لهذا الإسم من حيث العربية قياس ولا إشتقاق والأظهر أنه كاللقب ، فأما من قال: أنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال: تقمص إذا لبس القميص، فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، ومن قال: أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي، ومن قال: أنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة، وقول من قال: أنه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث الحضور مع الله تعالى فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف)).

ومن الملاحظ في قول الإمام القشيري رحمه الله أنه يرجح أن تسمية الصوفي هي كاللقب أُطلق على هذه الطائفة لتمييزها عمن عداها فلا يُسأل عن معناه أو اشتقاقه، أما نسبة الصوفية إلى الصوف فلا يعارضها القشيري، لأنها صحيحة من الناحية اللغوية لكنه يعدها من الأقوال الضعيفة، لأن الصوفية لم يختصوا بلبس الصوف.

ومهما يكن من أمر، فإن التصوف أشهر من أن يحتاج في تعريفه إلى قياس لفظ، واحتياج اشتقاق.

٢- المعنى الاصطلاحي للفظ التصوف: وإذا انتقلنا من بيان المعنى اللغوي للتصوف واشتقاقاته إلى المعنى الاصطلاحي نجد أن تعريفات التصوف كثيرة جداً وقد ذكر السهروردي أن له أكثر من ألف تعريف ، بل ذكر آخرون أنها تبلغ نحو الألفين تعريف، قال الشيخ أحمد زروق في قواعده: وقد حد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجع كلها صدق التوجه إلى الله وإنما هي وجوه فيه وترجع هذه الكثرة إلى أن كل واحد ممن عرّفوا التصوف كان يعبر عن ذوقه ووجده وحاله ، لهذا اختلفت العبارات ، لأن الطريق إلى الله تعالى بعدد

النجوم وبعدد أنفس السالكين ، ويمكن تصنيف هذه التعريفات إلى أنواع حسب الطابع الغالب عليها وسنذكر بعضاً منها:

أ– بعضها يركز على الجانب العملي الذي يهتم بمجاهدة النفس ومقاومة شهواتها ، وإصلاح القلوب وذلك كالذكر والمراقبة ومحاسبة النفس والزهد في الدنيا ، ومن نماذج هذه التعريفات:

قال ابن عجيبة (رحمه الله): التصوف : ((هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل وأوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة)).

وقال الشبلي (رحمه الله): ((التصوف : ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك))

وقال أبو الحسن الشاذلي (رحمه الله): ((التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية))

وقال صاحب كشف الظنون الحاجي خليفة: التصوف: علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم إلى أن قال:

علم التصوف علم ليس يعرفه	إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده	وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى : ((التصوف علم قصد به صلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه))

وقال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (رحمه الله): (التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر الباطن لنيل السعادة الأبدية).

ب– وبعضها يتجه إلى ملاحظة الجانب الأخلاقي الذي هو أهم أركان التصوف ومن هذه التعريفات:

قول الإمام الجنيد(ت٢٥٧هـ) رحمه الله: ((التصوف استعمال كل خلق سني وترك كل خلق دني))

وقولهم: ((التصوف كله أخلاق فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك بالتصوف))

ج- وبعضها يركز على جانب الصفاء وأشار إلى هذا المعنى الإمام الجنيد رحمه الله بقوله: ((التصوف أن يختصك الله بالصفاء فمن اصطفي من كل ما سوى الله فهو الصوفي)).

ونكتفي بهذا القدر من التعريفات لأننا لو حاولنا أن نتتبع أقوال الصوفية التي تتعلق بتعريف التصوف لطال بنا الحديث لذلك نكتفي بما ذكرناه من هذه النماذج التي تبين أن التصوف له معان متعددة تختلف باختلاف التجربة الروحية لكل صوفي.

ثانياً: نشأة التسمية:

أن المتتبع لهذه النحلة السامية يجد أنها مرت بمراحل مختلفة قبل أن تتسمى بهذا الاسم المعروف (الصوفية)، فكانت أحوالها تظهر في كل مرحلة باسم معين وهكذا إلى أن استقرت باسم (التصوف) وآية ذلك أن الشيخ الأستاذ أبا القاسم القشيري يقول في رسالته الشهيرة(الرسالة القشيرية): ((اعلموا أن المسلمين بعد رسول اللهﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علْمٍ سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم الصحابة، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة) .

ويبدو أن اسم التصوف كان موجوداً قبل المائتين لكنه ذاع وانتشر بعد المائتين وفي ذلك يقول ابن تيمية في كتابه (الصوفية والفقراء) : وأول ما ظهرت الصوفية من البصرة.

وأول من بنى دويرة التصوف بعض أصحاب عبدالواحد بن زيد وهو من أصحاب الحسن البصري (رحمهم الله) وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سار الأمصار ولهذا كان يقال، فقه كوفي وعبادة بصرية، وبه يقول العلامة

محمد كرد علي (رحمه الله) : وأول من تسمى بالصوفي في أهل السنة أبو هاشم الصوفي الكوفي المتوفى سنة (١٥٠هـ)

وقال ابن خلدون بعد كلام طويل عن علم التصوف: ... فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية .

ولسنا نهتم كثيراً بمصطلح الكلمة واشتقاقها بقدر اهتمامنا بمضمونها.فإن شئت سم (التصوف) بالتزكية ونهي النفس عن الهوى كما قال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾** ﴾، أو سمه الإحسان أو علم التربية والسلوك ولكن لا مفر لنا من إطلاق اسم التصوف عليه، لأنه الاصطلاح الذي تعاهده أهل التاريخ وشاع عندهم أكثر من غيره.

والتصوف ليس أمراً مستحدثاً جديداً؛ ولكنه مأخوذ من سيرة الرسولﷺ وحياة أصحابه الكرام، كما أنه ليس مستقى من أصول لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعوا أسماءً مبتكرة، فأطلقوا اسم التصوف على الرهبنة البوذية، والكهانة النصرانية، والشعوذة الهندية فقالوا :هناك تصوف بوذي وهندي ونصراني وفارسي يريدون بذلك تشويه اسم التصوف من جهة، واتهام التصوف بأنه يرجع في نشأته إلى هذه الأصول القديمة والفلسفات الضالة من جهة أخرى، ولكن الإنسان المؤمن لا ينساق بتياراتهم الفكرية، ولا يقع بأحابيلهم الماكرة، ويتبين الأمور، ويتثبت في البحث عن الحقيقة، فيرى أن التصوف هو التطبيق العملي للإسلام، وأنه ليس هناك إلا التصوف الإسلامي فحسب .

الفصل الثاني

العوامل المؤثرة في نشأة التصوف والأدوار التي مر بها

أولاً: العوامل المؤثرة في نشوء التصوف:

هناك عدة عوامل أدت إلى ظهور التصوف على الساحة الدينية كان من أهمها ما يأتي:

١- فساد الأوضاع الإجتماعية وطغيان الحياة المادية وضعف العمل الروحي فبعد أن اتسعت الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات وجد بعض المسلمين أنفسهم أمام ألوان من الحضارات وضروب من الترف تغريهم وتفتنهم، وقد اعتاد الكثيرون منهم على حياة الترف وأمعنوا أنفسهم في الإنغماس في الشهوات، فإذا هم يحيون حياةً رقيقة تختلف كل الإختلاف عن الحياة الأولى في زمن الرسول ﷺ ولم يكن ذلك ما رسمه الإسلام لهم ولا ما أراده الرسول الكريم ﷺ والخلفاء الراشدون، فكان لا بد من رد فعل فنشأ التصوف تعبيراً عن ثورة الوجدان الداخلي على فساد الأوضاع الإجتماعية القائمة. فأصبحت الحاجة ماسة إلى منهج عملي روحي يربي النفوس ويزكيها ويعيدها على منهج الرسول والصحابة بعد أن تضائل العمل الروحي وعزف الناس عن دينهم وركنوا إلى الدنيا لذلك لم نجد الدعوة إلى التصوف في عصر صدر الإسلام إلأ بعد عهد الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وفي ذلك يقول الدكتور أحمد علوش : قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة إلى التصوف في صدر الإسلام، وعدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين ؛ والجواب عن هذا :إنه لم تكن من حاجة إليها في العصر الأول، لأن أهل هذا العصر كانوا أهل تقوى وورع، وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول الله ﷺ ، فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمَّة ما يدعو إلى تلقينهم علماً يرشدهم إلى أمرٍ هم قائمون به فعلاً، وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي الُقح، يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر؛ حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة، دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم

النحو ودروس البلاغة، ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن، وضعف التعبير، أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها ويتعرف عليها، أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون وإن لم يتسموا باسم المتصوفين كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات، وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي إلى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان، والقيام بفروض الإسلام، بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسولﷺ من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات، حتى استنارت بصائرهم، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم .وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق، وقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله :((**خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه**)).

فلما تقادم العهد، ودخل في حظيرة الإسلام أمم شتى، وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص؛ قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره، فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول علم الفقه، وعلم التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض" الميراث "وغيرها..

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين

علومهم كما يظن ذلك خطأً بعض المستشرقين بل كان يجب أن يكون سداً للنقص، واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى.

وقال ابن خلدون في مقدمته: وهذا العلم يعني التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملَّة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف . فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية .

ويعنينا من عبارة ابن خلدون الفقرة الأخيرة، التي يقرر فيها أن ظهور التصوف والصوفية كان نتيجة جنوح الناس إلى مخالطة الدنيا وأهلها في القرن الثاني للهجرة، فإن ذلك من شأنه أن يتخذ المقبلون على العبادة اسماً يميزهم عن عامة الناس الذين ألهتهم الحياة الدنيا الفانية.

أما تاريخ التصوف فيظهر في فتوى للإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري (رحمه الله)، فقد سئل عن أول من أسس التصوف ؟ وهل هو بوحي سماوي ؟ فأجاب:

أما أول من أسس الطريقة، فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبيﷺ بعد ما بينها واحداً واحداً ديناً بقوله: ((**هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم**)) .

فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة :((**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)) .

٢- الخلاف مع بعض الفقهاء، حيث أن الصوفية يعتبرون أن بعض رجال الفقه قد صبغوا الدين بصبغة ظاهرية وجعلوه مجرد رسوم وأشكال ولم يعكفوا إلاّ على بيان الحلال والحرام مكتفين بظاهر العلم والعمل مقتصرين في ذلك على الجوارح من غير أن يتغلغلوا إلى باطنه حيث بواعث الأعمال وخطرات القلوب، فأغفلوا جانب الروح وسريرة النفس، فالدين الإسلامي فيه علم الظاهر والباطن وكل منهما يحتاج إلى علم ومعرفة بأوامره ونواهيه فكما للجوارح أوامر ونواهي فكذلك للقلب، فالصوفية لم يقتصروا على الأخذ بظاهر الشرع وإنما أخذوا به ظاهراً وباطناً واعتبروا كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة وكل حقيقة غير مؤيدة بالشريعة غير محصولة بل من قواعد الصوفية المشهورة : كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة.

ويقول الإمام مالك رحمه الله: ((من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق)).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن إعتراض الصوفية على بعض الفقهاء لم يكن بسبب تقصير هذه الطائفة عن استنباط مثل هذه المعاني، وإنما لأن كثيراً منهم قد وقع في خفايا الآفات فالعلماء عند الصوفية هم أشد الناس عرضة لصفة الرياء لذلك قيل: من يعلمك برائك وكلك رياء إلاّ الذين عافاهم الله فيعالجونك بما عالجهم به الله. فالتصوف ثورة ضد طغيان كل ما من شأنه أن يكون ذا طابع ظاهر أو مادي فلما ظهرت من بعض الفقهاء أخذهم بظواهر الأمور الدينية كان لا بد أن تظهر طائفة تجمع بين ظاهر الشرع وباطنه الشريعة والحقيقة فالتصوف أحدث نوعاً من التوازن الذي أثرى الحضارة الإسلامية.

ثانياً: أدوار التصوف:

إن التصوف منذ نشأته وتكونه مرّ بثلاث مراحل هي:

١- دور النشأة: وهي مرحلة الزهد وهي المرحلة الأولى في نشأة التصوف الواقعة في القرنين الأول والثاني الهجريين، فقد كان هناك أفراد من المسلمين أقبلوا على العبادة بأدعية وقربات وكانت لهم طريقة زهدية في الحياة تتصل بالمأكل والملبس والمسكن، وقد أرادوا بهذا

العمل الآخرة فآثروا لأنفسهم هذا النوع من الحياة والسلوك، ونضرب مثلاً لأولئك الحسن البصري المتوفى سنة١١٠هـ رحمه الله ورابعة العدوية المتوفاة سنة١٨٥هـ رحمها الله.

٢- دور الكمال: منذ القرن الثالث للهجرة نجد الصوفية قد عنوا بالكلام في حقائق أحوال النفس والسلوك وغلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم وعملهم فصار التصوف على أيديهم علماً للأخلاق الدينية، وكانت مباحثهم تدفعهم إلى التعمق في دراسة النفس الإنسانية ودقائق أحوال سلوكها، وكذلك الكلام في المعرفة الذوقية وأداتها ومنهجها والكلام عن الذات الإلهية من حيث صلتها بالإنسان وصلة الإنسان بها، وظهر الكلام في الفناء الصوفي خصوصاً على يد البسطامي رحمه الله، ونشأ من ذلك كله علم للصوفية يتميز عن علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية، له لغته الإصطلاحية الخاصة التي لا يشارك الصوفية فيها غيرهم، وظهر هذا العلم كواحد من العلوم الشرعية بعد ظهور التدوين، كما يشير ابن خلدون قائلاً: ((فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من هذه الطريقة (أي الصوفية) في طريقهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الإقتداء في الأخذ والترك كما فعله القشيري في الرسالة والسُهروردي البغدادي في عوارف المعارف، فصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط)).

ومن ناحية أخرى نجد بعض شيوخ التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين كالجنيد البغدادي، والسري السقطي، والخراز وغيرهم رحمهم الله يجمعون حولهم المريدين من أجل تربيتهم فتكونت لأول مرة الطرق الصوفية في المدارس التي يتلقى السالكون فيها آداب التصوف علماً وعملاً.

ثم جاء الإمام الغزالي رحمه الله في القرن الخامس الهجري فلم يقبل من التصوف إلا ما كان موافقاً للكتاب والسنة ورامياً إلى الزهد والتقشف وتهذيب النفس وإصلاح أخلاقها. ومنذ القرن السادس الهجري أخذ نفوذ التصوف في العالم الإسلامي يزداد بتأثير عظم شخصية الإمام الغزالي رحمه الله. وظهر صوفية كبار كونوا لأنفسهم طرقاً لتربية المريدين منهم

الإمام أحمد الرفاعي المتوفى سنة٥٧٠هـ رحمه الله والإمام عبدالقادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ رحمه الله وهما متأثران بتصوف الإمام الغزالي رحمه الله.

وفي القرن السابع الهجري أيضاً ظهر شيوخ آخرون ساروا على نفس الطريق أبرزهم الإمام أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦هـ رحمه الله وتلميذه أبو العباس المرسي المتوفى سنة٦٨٦هـ رحمه الله وتلميذهما ابن عطاء الله الإسكندري المتوفى سنة٧٠٩هـ رحمه الله، وهم أركان المدرسة الشاذلية في التصوف ويعتبر تصوفهم أيضاً امتداد لتصوف الغزالي رحمه الله.

٣- دور التراجع والتدهور: أصاب التصوف الإسلامي في عصوره المتأخرة منذ القرن الثامن الهجري تقريباً إلى العصر الحاضر شيء من التدهور فاتجه أصحابه إلى الشروح والتلخيصات لكتب المتقدمين، كما عنى أصحابه من الناحية العملية بضروب من الطقوس والشكليات أبعدتهم في كثير من الأحيان عن جوهر دعوتهم، وكثر أتباع التصوف في عصوره المتأخرة لكن لم يظهر من بين هذه الكثرة شخصيات لها ما لشخصيات التصوف الأولى من مكانة روحية مرموقة إلا القليل.

ولعل هذا كان راجعاً إلى ما سيطر على العالم الإسلامي في عصوره المتأخرة من ركود فكري أبان عصر العثمانيين، وعلى كل حال فإن إنحراف بعض الصوفية في بعض عصور التاريخ لا ينهض دليلاً على فساد دعوتهم.

الفصل الثالث

مصادر التصوف

لقد اعتنى الكثير من المستشرقين بدراسة التصوف ومصادره لكنهم أخطأوا إذ ردوا التصوف إلى مصادر أجنبية ولا يخفى على عاقل نوايا المستشرقين حول الإسلام وتشويه معالمه فحينما وجدوا في التصوف روح الإسلام حاولوا أن يطعنوا بالدين بأن يتهموا التصوف أن مصادره أجنبية فارسية وهندية بوذية ونصرانية وغير ذلك ليضعوا في عقول الناس فكرة عدم إسلامية التصوف وأنه يستمد منهجه من هذه الديانات، والحقيقة التي لا شك فيها أن التصوف السني الإسلامي مصادره إسلامية إذ يمثله غالبية صوفية الإسلام، فهو إسلامي

النشأة والتطور، ونظريات بعض المستشرقين في مصدره لم تكن صحيحة ومنصفة لذا لا نعول على آراء المستشرقين ويأخذ بنا الكلام باعاً طويلاً ولا يسمن ولا يغني ويبعدنا عن ما هو أهم في بيان مصادر التصوف الأصيلة الإسلامية التي تثبت بطلان ما ذهب إليه هؤلاء.

فمن أهم مصادر التصوف هو:

١- القرآن الكريم: وهو المصدر الأول الذي استمد الصوفية منه آراؤهم في الأخلاق والسلوك ورياضاتهم العملية التي اصطنعوها من أجل تحقيق هدفهم من الحياة الصوفية، وقد بين الطوسي رحمه الله في كتابه اللُمع: أن للصوفية تخصيصاً بمكارم الأخلاق والبحث عن معاني الأحوال وفضائل الأعمال اقتداءً بالنبي ﷺ وصحابته الكرام ومن تبعهم، وهذا كله موجود في كتاب الله تعالى.

والصوفية الكرام على اختلافهم يتصورون طريقاً للسلوك إلى الله تعالى يبدأ بمجاهدة النفس أخلاقياً ويتدرج السالك له في مراحل متعددة تعرف بالأحوال والمقامات التي تنتهي بالسالك إلى المعرفة بالله تعالى، وجميع مقامات التصوف وأحواله التي هي موضوع التصوف أساساً مستندةً إلى شواهد من القرآن الكريم، فمثلاً مجاهدة النفس التي هي بداية الطريق إلى الله تعالى تستند إلى آيات من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ **والَّذينَ جاهَدوا فِينا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنا** ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَن خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفسَ عَنِ الهَوى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأوى** ﴾، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾. وكذلك التقوى لها شواهد من القرآن وكذلك الزهد والتوكل والشكر والصبر والرضا والحياء والمحبة وغيرها كلها لها شواهد من القرآن الكريم.

وكذلك الأحوال كالخوف مثلاً له مستند وشواهد من القرآن كقوله تعالى: ﴿ **يَدعونَ رَبَّهُم خَوفاً وَطَمَعاً** ﴾، وكذلك حال الرجاء يستند إلى قوله تعالى: ﴿ **مَن كانَ يَرجُوا لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ** ﴾، وهكذا الأحوال كلها ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نذكر كل معنى من المعاني النفسية والأخلاقية التي يعبر عنها الصوفية بالأحوال والمقامات ونذكر معها

شاهدها من القرآن الكريم، فالذي ذكرناه يبين لنا بوضوح أن البذور الأولى للتصوف موجودة في القرآن الكريم، ومن هنا يكون التصوف من حيث نشأته الأولى آخذاً من القرآن الكريم.

٢- حياة النبي ﷺ التعبدية: فكما كان القرآن الكريم منبعاً استقى منه السادة الصوفية تصوفهم، كذلك حياة النبي ﷺ وأخلاقه وأقواله هي مصدر آخر من مصادر التصوف، وقد أخذ السادة الصوفية من حياة رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها منهجاً لهم في سيرهم وسلوكهم، فأن حياة النبي ﷺ التعبدية قبل البعثة في غار حراء بما فيها من تحنث وتقلل من المأكل والمشرب، وتأمل في الكون، كانت صورة أولى للحياة التي سيحياها فيما بعد الزهاد والصوفية والتي اخضعوا أنفسهم فيها لضروب من الرياضات والمجاهدات والأحوال التي هي ثمرة الخلوة، وقد أشار الإمام الغزالي رحمه الله إلى استناد الصوفية في هذا المسلك إلى عزلة النبي ﷺ فقال: ((الفائدة الأولى للعزلة التفرغ للعبادة والفكر والإستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السماوات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه)).

أما حياة النبي ﷺ بعد البعثة ونزول الوحي فكانت أيضاً متصفة بالزهد والتقلل في المأكل والمشرب حافلة بالمعاني الروحية التي وجد فيها الصوفية منبعاً فياضاً لهم. ولا يمكننا أن نتقصى جميع أخلاقه عليه الصلاة والسلام التي اكتسب بها حب أصحابه له وثناء أعداءه له فهو عليه الصلاة والسلام أعظم شخصية ربانية وأعظم قائد يشهد له بذلك حتى أعداء الإسلام، فكان المثل الأعلى للمسلمين وأسوتهم الحسنة بما فيهم الصوفية، فتصوف الصوفية وما ينطوي عليه من النزعات الزهدية والمعاني الأخلاقية وما يترتب عليها من ثمرات روحية قد وجد مادته الأولى في حياة رسول الله ﷺ وأخلاقه وأقواله.

٣- حياة الصحابة الكرام وأقوالهم: كانت حياة الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وأقوالهم منبعاً آخر استقى منه السادة الصوفية، لأن حياتهم وأقوالهم حافلة بالشيء الكثير من الزهد والورع والتقشف والإقبال على الله تعالى.

ولا يستطيع باحث منصف في تاريخ التصوف الإسلامي أن يغفل ما انطوت عليه حياة الصحابة وأقوالهم من المنازع الروحية والأذواق القلبية، وذلك حينما يريد التعرف على الأسس التي قامت عليها حياة الصوفية الروحية.

لقد كان الصحابة في الحقيقة مقتدين بالنبي ﷺ في جميع أحواله وأقواله، وقد امتدحهم سبحانه في قوله: ﴿ **الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرينَ والأنصار وَالَّذينَ اتَّبَعُوهُم بِإحسانٍ رَضِيَ الله عَنهُم وَرَضوا عَنهُ** ﴾، وأشار رسول الله ﷺ إلى علو منزلتهم ووجوب الإقتداء بهم بقوله: (**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**)، ومن هنا نظر السادة الصوفية إلى الصحابة الكرام على أنهم قدوة في جميع معانيهم الظاهرة والباطنة.

ونذكر هنا بعضاً مما روي عن الصحابة من الأقوال والأحوال التي جعلها السادة الصوفية مصدراً روحياً لهم، ولا نستطيع أن نذكر كل ما روي عنهم لكثرتها وتجنباً للإطالة لذا سنذكر بعضاً منها للدلالة على ما نحن بصدده، فما روي عن أحوال الصحابة إجمالاً قول أبي عتبة الحلواني: ((ألا أخبركم عن حال كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ ، أولها: لقاء الله تعالى، كان أحب إليهم من الحياة. والثانية: كانوا لا يخافون عدواً قلّوا أو كثروا. والثالثة: لم يكونوا يخافون عوزاً من الدنيا، وكانوا واثقين برزق الله تعالى)).

وكان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه زاهداً حتى ليروى عنه أنه كان يطوي ستة أيام، وكان لا يزيد على ثوب واحد، وكان يقول: ((إذا دخل العبد العجب بشيء من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة)). وتحدث رضي الله عنه عن التقوى واليقين والتواضع فقال: ((وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع)).

وكان أيضاً سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه صافي النفس طاهر القلب حتى قال عنه رسول الله ﷺ : (**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**)، وكان رضي الله عنه متقشفاً حتى ليروى عنه أنه كان يخطب وهو خليفة وعليه قميص فيه إثنا عشر رقعة.

وأما سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه فكان قدوة أيضاً لأهل التصوف في أمور كثيرة، ففي مجاهدة النفس يروى عنه أنه حمل حزمة حطب من بعض بساتينه وكان له عدة مماليك فقيل

له: لو دفعتها إلى بعض عبيدك؟ فقال: إني قد استطعت أن أفعل ذلك، فدل ذلك على أنه كان لا يدع مجاهدة النفس فلا يسكن إلى ما جمع من الأموال، لأنه ليس في ذلك كغيره. ويروى عن زهده مع كثرة ماله أن الإنفاق كان أحب إليه من الإمساك، فهو من جهز جيش العسرة واشترى بئر رومة من يهودي كان يمنع المسلمين عنها.

وروي عنه أيضاً أقوالاً لها دلالة صوفية منها قوله: ((وجدت الخير مجموعاً في أربعة: أولها: التحبب إلى الله تعالى، والثاني: الصبر على أحكام الله تعالى، والثالث: الرضا بتقدير الله ﷻ، والرابع: الحياء من نظر الله ﷻ))، فكأنه يتحدث عن مقامات أربعة من مقامات السلوك وهي: (المحبة، والصبر، والرضا، والحياء).

أما سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ فله أيضاً عند الصوفية منزلة خاصة رفيعة يقول الطوسي رحمه الله: ((ولأمير المؤمنين علي ﷺ خصوصية من بين أصحاب رسول الله ﷺ بمعاني جليلة وإشارات لطيفة وألفاظ مفردة وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان والعلم وغير ذلك وخصال شريفة تعلَّقَ وتخلَّقَ بها أهل الحقائق من الصوفية)).

وقال الطوسي أيضاً : ((ولعلي ﷺ أشباه ذلك كثير من الأحوال والأخلاق والأفعال التي يتعلق بها أرباب القلوب وأهل الإشارات وأهل المواجيد من الصوفية)).

وهكذا بقية صحابة رسول الله ﷺ ، كمعاذ بن جبل، وعمران بن حصين، وأبي هريرة، وسلمان الفارسي، ، وأبا ذر الغفاري، وأنس بن مالك والصحابة أجمع كانت حياتهم التعبدية مصدراً استقى منه صوفية الإسلام الذين جاؤوا فيما بعد.

الفصل الرابع

الفرق بين العابد والزاهد والعارف

الزهد لغةً: ترك الشيء أو الميلِ إليه.

واصطلاحاً عند الصوفية: هو بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: إن الزهد ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل: أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك، ومنه جاء مصطلح الزاهد أي المعرض عن متاع الدنيا ولذاتها.

وهناك من فرق بين الصوفي والزاهد والعابد، فيذكر ابن سينا: أن المُعْرِض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما يسمى العابد، والمنصرف بفكره إلى الله مستديماً لشروق نور الحق في سره يخص باسم العارف. والعارف عنده هو الصوفي. ومن هنا فقد فرق بين الزاهد والصوفي. الزاهد من يزهد في الدنيا، والصوفي يزهد في كل ما يبعده عن الله، الزاهد يحرم نفسه من متاع الدنيا، والصوفي لا يحرم نفسه من متاع الدنيا إلا إذا حجبته عن الله، الزاهد غايته دخول الجنة، والصوفي غايته معرفة الله، الزاهد لابد أن يملك حتى يزهد فيه، والصوفي لا يشترط أن يملك شيئاً حتى يزهد فيه، وعلى ذلك فإن الزهد بالمفهوم الصوفي أن تكون الدنيا في يده لا في قلبه. ومن ذلك نرى أن كل صوفي زاهد، وليس كل زاهد صوفياً.

الفصل الخامس

أخلاق الصوفية

تميز السادة الصوفية طوال تاريخهم بأخلاقيات انفردوا بها عن غيرهم وخصوا أنفسهم بها دون سواهم، بجانب الأخلاقيات الإسلامية العامة التي ينبغي أن يتحلى بها كل مسلم انطلاقاً من حديث النبي ﷺ : (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)، ولذلك عرف الصوفي بالأخلاق، ومن زادك في الخلق والصفاء زادك في التصوف.

والتصوف في مفهومه الصحيح كما بينه أئمته منهج سلوكي تربوي قائم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبه تتم مكارم الأخلاق ويتم كمال الأدب، وبه تدرك الفتوحات الربانية والأنوار المحمدية، يقول الإمام الغزالي رحمه الله: ((إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن مسيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق)).

فالصوفية هم أوفر الناس حظاً من الإقتداء برسول الله ﷺ وأحياء سنته والتخلق بأخلاقه، لأنهم وقفوا في بداياتهم لرعاية أقواله، وفي وسط حالهم اقتدوا بأعماله، فأثمر لهم ذلك في نهاياتهم أن تحققوا بأخلاقه ﷺ ، وتحسين الأخلاق لا يتأتى إلاّ بعد تزكية النفس

وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع، قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم** ﴾ ، لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفساً كان أحسنهم خُلُقاً.

وسُئِلت سيدتنا عائشة رضي الله عنها وعن أبيها عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: كان خُلُقه القرآن.

قال الإمام الجنيد رحمه الله: ((كان خُلُقه عظيماً، لأنه لم يكن همّه سوى الله)).

وقيل: لأنه عليه الصلاة والسلام عاشر الخلق بخُلُقه وباينهم بقلبه وهذا ما قاله بعضهم في معنى التصوف: التصوف الخُلُق مع الخَلق، والصدق مع الحق.

فمن أحسن أخلاق الصوفية ما يأتي:

أولاً: التواضع:

إن التواضع خير لباس يلبسه العبد، ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة فقد ظفر بخير كثير، والتَّواضُع نوعان : **أحدهما محمود، والآخر مذموم** ، والتَّواضُع المحمود : ترك التَّطاول على عباد الله والإزراء بهم . والتَّواضُع المذموم : هو تواضع المرء لذي الدُّنْيا رغبةً في دنياه، فالعاقل يلزم مفارقة التَّواضُع المذموم على الأحوال كلِّها، ولا يفارق التَّواضُع المحمود على الجهات كلِّها.

ومن صور التواضع :

١– **تواضع الإنسان في نفسه،** ويكون ذلك بألَّا يظنَّ أنَّه أعلم مِن غيره، أو أتقى مِن غيره، أو أكثر ورعاً مِن غيره، أو أكثر خشيةً لله مِن غيره، أو يظنُّ أنَّ هناك مَن هو شرٌّ منه، لأنَّ القلوب بين إصبعين مِن أصابع الرَّحمن، يقلِّبها كيف يشاء، قال تعالى: ﴿ **وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾، وقال بعضهم : ما دام العبد يظنُّ أنَّ في الخَلْق مَن هو شرٌّ منه فهو متكبِّر، فقيل له: فمتى يكون متواضعاً ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً.

ومِن التَّواضُع ألَّا يَعْظُم في عينك عملك، إن عملت خيراً، أو تقرَّبت إلى الله تعالى بطاعة، فإنَّ العمل قد لا يُقْبَل.

٢- تواضع الإنسان مع الناس، فالمسلم يخالط النَّاس ويدعوهم إلى الخير، وإلى الأخلاق الإسلاميَّة، ومِن طبيعة النَّاس أنَّهم لا يقبلون قول مَن يعظِّم نفسه ويحقرهم، ويرفع نفسه ويضعهم، وإن كان ما يقوله حقّاً، بل عليه أن يعرف أنَّ جميع ما عنده هو فضلٌ مِن الله تعالى، فالمسلم المتواضع هو الذي لا يعطي لنفسه حظّاً في كلامه مع الآخرين، ومِن تواضع المسلم مع النَّاس: أن يجالس كلَّ طبقات المجتمع، ويكلِّم كلًّا بما يفهمه، ويجالس الفقراء والأغنياء.

٣- **تواضع الإنسان مع من هم أقل منه منزلة،** مِن التَّواضُع : التواضع مع من هو أقل منك، بل لا يُتصوَّر التواضع إلا مع من هو دونك، سواء في العلم أو الفهم أو المال أو الجاه ومن هو أصغر منك سناً وغير ذلك، بل إذا رأيت من وقع في معصية فلا تتعالى عليه وتعجب بنفسك وعملك، فربما كانت معصيته سبباً في توبة وإنابة، وذل وانكسار، وربما كان إعجاب الإنسان بعمله سبباً في حبوط عمله. عن جندب ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ حدَّث :(**أنَّ رجلًا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وأنَّ الله تعالى قال : مَن ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟! فإنِّي قد غفرت لفلان وأحبطت عملك**).

وفي ذلك كله لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فهو جمَّ التَّواضُع، لا يعتريه كِبرٌ ولا بَطَرٌ، على رِفْعَة قَدْرِه وعلوِّ منزلته، يخفض جناحه للمؤمنين ولا يتعاظم عليهم، ويجلس بينهم كواحد منهم، ولا يُعْرَف مجلسه مِن مجلس أصحابه؛ لأنَّه كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، ويجلس بين ظهرانيهم فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل عنه. وكان ﷺ مِن تواضعه، يتفقَّد أحوال أصحابه ويقوم بزيارتهم، عن عبدالله بن عمرو قال: أن رسول الله ﷺ ذكر له صومي، فدخل علي، فألقيت له وسادة من أدم حشوها ليف، فجلس على الأرض، وصارت الوسادة بيني وبينه، فقال لي: (**أما يكفيك من كل شهر ثلاثة أيام؟**) قلت: يا رسول الله، قال: (**خمساً**) قلت: يا رسول الله، قال: (**سبعاً**) قلت: يا رسول الله، قال: (**تسعاً**) قلت: يا رسول الله، قال: (**أحد عشر**) قلت: يا رسول الله، فقال النبي ﷺ : (**لا صوم فوق صوم داود، شطر الدهر، صيام يوم، وإفطار يوم**).

ومتى لم يكن للصوفي حظ من التواضع على بساط القرب لا يتوفر حظه في التواضع للخلق، وهذه سعادات جاءت بكليتها والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية.

ثانياً: المداراة واحتمال الأذى:

المداراة لغةً: مصدر دارى، يقال: داريته مداراة: لاطفته ولاينته، ومداراة الناس: أي ملاينتهم وحسن صحبتهم واحتمالهم؛ لئلا ينفروا عنك .

ومعنى المدَاراة اصطلاحاً:قال ابن بطال: (المدَاراة: خفض الجناح للناس، ولين الكلام وترك الإغلاظ لهم في القول).

وقال ابن حجر: (المراد به الدفع برفق).

وقال المناوي: (المدَاراة: الملاينة والملاطفة).

وهناك فرق بين المداراة والمداهنة: قال ابن بطال: (المدَاراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أنَّ المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسَّرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمدَاراة : هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل،ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك) .

وقال القرطبي في الفرق بينهما: (أنَّ المدَاراة: بذل الدنيا لصلاح الدنيا، أو الدين، أو هما معاً، وهي مباحة وربما استحبت. والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا).

وقال الغزالي: (الفرق بين المدَاراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضيت لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظِّ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن)

وكان رسول الله ﷺ من مداراته أنه لا يذم طعاماً ولا ينهر خادماً، والمداراة مع كل أحد الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية، وبإحتمال الأذى يظهر جوهر النفس، وقد قيل: لكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر. قال

عليه والصلاة والسلام: (**المؤمن الذي يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**).

وصفة المدَاراة يحتاج إليها في التعامل مع بعض الأشخاص، في بعض الأوقات، ومن صور المداراة:

١- صيانة النفس من أهل الفجور والشرور: عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها، أن رجلا استأذن على النبي ﷺ ، فقال: (**ائذنوا له، فلبئس ابن العشيرة، أو بئس رجل العشيرة**)، فلما دخل عليه ألان له القول، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله قلت له الذي قلت، ثم ألنت له القول؟ قال: (**يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة، من ودعه، أو تركه الناس اتقاء فحشه**). وهذا فيما لا بد من مخالطته.

٢- في دعوة الناس والسلطان: قال تعالى : ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ . أمر الله جلَّ وعلا نبيه موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام أن يقولا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه **قَوْلاً لَّيِّنًا** أي: كلاماً لطيفاً سهلاً رقيقاً، ليس فيه ما يغضب وينفر. وقد بين جلَّ وعلا المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى** ﴾، وهذا غاية لين الكلام ولطافته ورقته، وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة أشار له تعالى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾. قال ابن القيم رحمه الله: ((المداري يتلطَّف بصاحبه حتى يستخرج منه الحقَّ، أو يردَّه عن الباطل)).

٣- المدَاراة مع النفس: بحملها على الطاعة بذكر نعيم الجنة، وكفها عن المعصية بذكر عذاب النار. قال ابن الجوزي: ((ومن فهم هذا الأصل، علَّل النفس، وتلطف بها، ووعدها الجميل، لتصبر على ما قد حملت، كما كان بعض السلف يقول لنفسه: والله ما أريد بمنعك من هذا الذي تحبين إلا الإشفاق عليك... واعلم أن مداراة النفس والتلطف بها لازم، وبذلك ينقطع الطريق)).

ثالثاً: الإيثار:

يعتبر الإيثار من محاسن الأخلاق الإسلامية، فهو مرتبة راقية من مراتب البذل، ومنزلة عظيمة من منازل العطاء، لذا أثنى الله على أصحابه ، ومدح المتحلين به، وبيّن أنهم المفلحون في الدنيا والآخرة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾.

قال الطبري: ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَهُوَ يَصِفُ الأَنْصَارَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ. مِنْ قَبْلِ الْمُهَاجِرِينَ: وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. يَقُولُ: وَيُعْطُونَ الْمُهَاجِرِينَ أَمْوَالَهُمْ إِيثَارًا لَهُمْ بِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ. يَقُولُ: وَلَوْ كَانَ بِهِمْ حَاجَةٌ وَفَاقَةٌ إِلَى مَا آثَرُوا بِهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِم)).

وقال ابن كثير: ((أي: يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك)).

ويقول ابن تيمية: ((وأما الإيثار مع الخصاصة فهو أكمل من مجرد التصدق مع المحبة فإنه ليس كل متصدق محباً مؤثراً ولا كل متصدق يكون به خصاصة بل قد يتصدق بما يحب مع اكتفائه ببعضه مع محبة لا تبلغ به الخصاصة)).

رابعاً: ومن أخلاق الصوفية أيضاً ما ذكره السُهرَوردي في عوارف المعارف: بقوله: ومن أخلاقهم **التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة،** وقد روي عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (**رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت يا جبريل لمن هذه؟ قال للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس**).

ومن أخلاقهم **البشر وطلاقة الوجه،** فالصوفي بكاؤه في خلوته وطلاقة وجهه مع الناس، وقال النبي ﷺ : (**كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق**).

ومن أخلاقهم **التودد والتآلف والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة** قال عليه

الصلاة والسلام: (**المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**).

وما ذكرناه من أخلاق الصوفية فهو غيض من فيض أخلاق رسول الله ﷺ التي ورثوها عنه وتخلقوا بها، ومن لم يتخلق بها فلا ينتمي إلى التصوف وليس من أهله وصحبة هؤلاء الصوفية المتحققين بهذه الأخلاق هي الترياق المجرب للتخلص من روعانات النفس وتهذيب الأخلاق والترقي بالأحوال، ولذلك كان علماء السلف يدعون الناس إلى مرافقة الصوفية ومصاحبتهم حتى يتعلموا منهم ويتخلقوا بأخلاقهم، وفى ذلك ورد أن رجلاً قال لسهل بن عبدالله التسترى (ت٢٧٢هـ) رحمه الله: من أصحب من طوائف الناس؟ فقال عليك بالصوفية، فإنهم لا يستكبرون ولا يستكثرون.

الفصل السادس

مقامات وأحوال العارفين

يعتبر بحث الأحوال والمقامات من الأبحاث الهامّة في الفكر الصوفي، لما لذلك من أثر على عملية السير والسلوك، إذ بهما يعرف السالك كيفية السير والسلوك والمواطن والمنازل والحالات التي توصله إلى المقصد النهائي، والأحوال والمقامات هي درجات (مراحل) هذا التطور أو الترقي الروحي ، استناداً إلى تقرير القرآن أن الوجود الإنساني ينبغي أن يكون في صعود دائم عبر درجات، قال تعالى: ﴿ **يَرفَعِ الله الَّذينَ آمنُوا مِنكُم وَالَّذينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجات** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **وَرَفَعنا بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعضٍ دَرَجات** ﴾، وهذه الدرجات بعضها ذو طابع ذاتي هي الأحوال ، وبعضها ذو طابع موضوعي هي المقامات . فالأحوال تمثل الدرجات الذاتية لهذا الترقي الروحي، التي تأتي كمحصلة لالتزام الإنسان بمجموعة من القواعد التي تحدد للإنسان ما ينبغي أن يكون عليه وجدانه وتفكيره. بينما المقامات تمثل درجاته الموضوعية التي تأتي كمحصلة لالتزام الإنسان بمجموعة القواعد التي تحدد له ما ينبغي أن يكون عليه سلوكه.

والمقام والحال: اصطلاحان يستخدمهما الصوفية للتدليل على تدرج السالك للطريق الصوفي من مكانة إلى أخرى، ولما يتعرض له في تدرجه هذا في المقامات من أحوال

تأتيه من نسمات الرحمة الإلهية.

فالمقامات: هي مكاسب تحصل للإنسان المؤمن ببذل المجهود، وهي مراحل يرتقي فيها المريد في طريقه إلى التمكين والاطمئنان القلبي لتتحقق له مكانة بين الخاصة من المصطفين الأخيار.ويقول السراج الطوسي في كتابه(اللمع): ((إن قيل ما معنى المقامات؟ يقال: معناه مقام العبد بين يدي الله ﷻ ، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضيات والانقطاع إلى الله ﷻ، وقال الله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقامِي وَخافَ وَعيد** ﴾، وقال ﷻ : ﴿ **وَما مِنّا إلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعلُوم** ﴾)). ومن المقامات: **التوبة – الورع – الزهد – الفقر – الصبر – الرضا – التوكل...الخ** .

أما الحال: فهي معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اكتساب،والأحوال: هي المذاهب الفائضة على العبد من ربه، وهي تكون ميراثاً يلي العمل الصالح المقترن بصفاء القلب،أو امتناناً من الله تعالى على العبد،ولكنها لا تدوم وإذا دامت تحولت من حال إلى مقام.

وقيل: وأما معنى الأحوال: فهو ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار،وقد حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قال: الحال نازلة تنزل بالقلوب فلاتدوم...وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضيات كالمقامات.

ومن الأحوال : **المراقبة – القرب – المحبة – الخوف – الرجاء – الشوق – الأنس – الطمأنينة – المشاهدة – اليقين...الخ.**

المقام: إذن هو مقام الإنسان بظاهره وباطنه في حقائق الطاعات، وأما الحال فهي ما يتعرض له القلب من نسمات الرحمة الإلهية والصدر من الشرح ولا يدوم.

وجاء في تعريف للدكتور قاسم غني: ((مقامات التصوف إنما هي من الأمور الاكتسابية والاجتهادية، ومن جملة الأعمال التي هي باختيار السالك وإرادته، بينما الأحوال من مقولة الإحساسات والانفعالات الروحية، ومن الحالات والكيفيات النفسية الخاصة مما ليس باختيار الإنسان بل هو من جملة المواهب والأفضال النازلة على قلب السالك من لدن

الله من غير أن يكون للسالك أدنى تأثير في نزوله على قلبه أو محوه عن خاطره)).

والأحوال من ثمرات الاستغراق في ذكر الله ﷻ، يخلقها في قلوب الذاكرين ، وسميت أحوالاً لأنها تتحول ولا تدوم ، وقد تسمى وجداً لوجودها في القلب ، وإذا قويت قد تفيض عن القلب ، فتظهر على الجوارح حركات اضطرارية أو بكاءً أو صراخاً . وأكثر ما تظهر على جوارح المبتدئين ، أما المتمكنون فإنهم يصرعون أحوالهم ويمنعونها من الظهور.

ولا يظن إنسان أن الأحوال الطيبة ثمرة الذكر فقط ، بل لابد من الأعمال التي أمر بها الشرع وتعبُّدنا الله بها ، قال الكلاباذي رحمه الله تعالى : ((اعلم أن علوم الصوفية علوم أحوال، والأحوال مواريث الأعمال ، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال ، وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها ؛ وهي علوم الأحكام الشرعية ... فالوجد الشرعي ثمرة الإتباع للكتاب والسنة)).

أبرز خصائص المقامات والأحوال

أولاً: خصائص المقامات: تحدّث العارفين على خصائص المقامات، ومن أبرزها:

١- أنّ المقام ثابت مستقرّ لا يطرأ عليه التغيير، وعلى العبد أن يدرك المقامات ويجهد نفسه للوصول إليها، لذلك قالوا: إنّ المقامات مكاسب، أي هي أمور يجب أن يكتسبها السالك.

٢- إنّ وصول العبد السالك إلى المقامات وعبوره عنها لا يجري إلّا مع تعب وجهد، لأنّه لا يمكن أن يصل إلى مقام أو يرتقي إلى آخر إلا بعد عمل دؤوب ومقاساة تكلّف.

٣- أنّ صاحب المقام مُمكّن في مقامه، بمعنى أنّ الذي يصل إلى مقام معيّن فلا يمكن أن يزول أو يتنزّل عنه.

٤- المقامات مترتبة صعوداً، بمعنى أنّ كلّ مقام هو أعلى من الآخر، ويكون جامعاً لكمالات الأدنى، فالذي يصل إلى مقام الزهد فقد عَبَرَ عن مقام التوبة، ومقام الزاهد يتضمّن التوبة، بمعنى أنّ الزاهد لا يمكن أن يكون إلّا تائباً، وهكذا، حتى تصل إلى أعلى المقامات.

ثانياً: خصائص الأحوال: أما أبرز خصائص الأحوال فهي:

١- الحال حالة معنوية غير مستقرّة تأتي وتزول، وعلى العارف السالك أن ينتظر فيضان الأحوال من عند الله ليقع في الجذبة الإلهية ويرى الحقائق الكمالية، لذلك قيل: العارف ابن الوقت، وفي هذا إشارة إلى أنّ العارف الحقيقي هو الذي ينتظر وقت نزول الحال عليه، فيستفيد منه في إطار السير والسلوك.

٢- الحال موهبة يمنّ الله تعالى بها على العبد، وذلك خلافاً للمقام على أساس أنّ المقام يتطلّب عملاً من العبد، أمّا الحال فهو لا يقتضي عملاً ولا مشقّة، بل الله تعالى من باب فيضه ولطفه يتفضل على العبد بأن ينزل عليه بعض المعاني المعنوية.

٣- الأحوال ليست ثابتة ولا مستقرة، بمعنى أنّ العبد قد يحصل له حال معيّن، ولكن ليس من الضروري أن يحصل له نفسه في وقت آخر. لذلك قيل إنّ صاحب الحال مترفع عن حاله، فالحال عنده لا يحصل بناءً على طلبه، بل لا أثر لطلبه في ذلك، لأنّ الله هو الذي يعطيها.

وأصل هذه المقامات والأحوال هو **ذكر الله تعالى**، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد، ويثمر المعارف والأحوال التي شمَّر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها، كان أعظم لثمرتها وفائدتها.

وهو أصل كل مقام وقاعدته التي يبني عليها، كما يبنى الحائط على أساسه، وكما يقوم السقف على جداره.

وذلك أن العبد إن لم يستيقظ من غفلته لم يمكنه قطع منازل السير الموصلة إلى معرفة الله تعالى التي خلق الإنسان لأجلها، قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾** ﴾. ولا يستيقظ المرء إلا بالذكر، فالغفلة نوم القلب أو موته.

معاني كلمة الذكر:

أطلقت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة كلمة" الذكر "على عدة معان:

١- فتارة قُصد بها **القرآن الكريم** كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾** ﴾.

٢- وتارة قُصد بها **صلاة الجمعة** : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾** ﴾.

٣- وفي موطن آخر عني بها **العلم** :﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾** ﴾.

٤- وفي معظم النصوص أريد بكلمة" الذكر "**التسبيح والتهليل والتكبير والصلاة على النبي ﷺ** ، وما إلى هنالك من الصيغ، كما في قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ** ﴾. وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾** ﴾.

وعن عبد الله بن بسر أن رجلاً قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: ((**لا يزال لسانك رطْباً من ذكر الله**)).

أدلة الذكر من القرآن الكريم:

١- قال تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾** ﴾.

٢- وقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾** ﴾.

٣- وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾** ﴾.

٤- وقوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾** ﴾.

٥- وقوله تعالى : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

أما أدلته من السنة:

١- قال عليه الصلاة والسلام: ((**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**)).

٢- وقال ﷺ: ((**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا .قالوا :يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال :حلَق الذكر**)).

٣- وقوله عليه الصلاة والسلام: ((**يقول الله ﷻ يوم القيامة :سيعلَم أهلُ الجمعِ من أهلُ الكرم، فقيل :ومن أهلُ الكرم يا رسول الله؟ قال :أهل مجالس الذكر في المساجد**)).

٤- وقال عليه الصلاة والسلام: ((**يقول الرب تبارك وتعالى :من شغلَه قراءةُ القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أعطي السائلين**)).

أقسام الذكر:

أولاً: ذكر السر والجهر: إن ذكر الله تعالى مشروع سراً وجهراً، وقد رغَّب رسول الله ﷺ في الذكر بنوعيه :السري والجهري، إلاَّ أن علماء الشريعة الإسلامية قرروا أفضلية الجهر بالذكر إذا خلا من الرياء، أو إيذاء مصلٌّ أو قارئ أو نائم، مستدلين ببعض الأحاديث النبوية الشريفة، منها:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((**يقول الله :أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**)).

٢- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي ﷺ قال ابن عباس: كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته.

٣- عن السائب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**جاءني جبريل قال :مر أصحابك يرفعوا أصواتهم بالتكبير**)).

وهناك أحاديث بلغت حد الكثرة، جمع منها العلامة الكبير جلال الدين السيوطي خمسة وعشرين حديثاً في رسالة سماها نتيجة الفكر في الجهر بالذكر فقال : الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، سألت أكرمك الله عما اعتاده السادة الصوفية من عقد حلَق الذكر، والجهر به في المساجد، ورفع الصوت بالتهليل وهل ذلك مكروه، أو؛ لا؟

الجواب :إنه لا كراهة في شيء من ذلك، وقد وردت أحاديث تقتضي استحباب الجهر بالذكر، وأحاديث تقتضي استحباب الإسرار به، والجمع بينهما أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص .

ثم ذكر الأحاديث الدالة على ذلك بكاملها ثم قال :إذا تأملت ما أوردنا من الأحاديث، عرفت من مجموعها أنه لا كراهة البتة في الجهر بالذكر، بل فيه ما يدل على استحبابه؛ إما صريحاً أو التزاماً – كما أشرنا إليه ، وأما معارضته بحديث'' خير الذكر الخفي ''فهو نظير معارضة أحاديث الجهر بالقرآن بحديث : ((**المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة**))، وقد جمع النووي بينهما : بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء، أو تأذَّى به مصلون أو نيام، والجهر أفضل في غير ذلك؛ لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ولأنه يوقظُ القارئ، ويجمع همه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم، ويزيد في النشاط .وقال بعضهم :يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها، لأن المسِر قد يملُّ فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكلُّ فيستريح بالإسرار .وكذلك نقول في الذكر على هذا التفصيل، وبه يحصل الجمع بين الأحاديث .فإنْ قلت :قال الله تعالى: ﴿ **وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾** ﴾ ،

قلت :الجواب على هذه الآية من ثلاثة أوجه:

الأول : إنها مكية كآية الإسراء :ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، وقد نزلت حين كان النبي ﷺ يجهر بالقرآن، فيسمعه المشركون فيسبون القرآن ومن أنزله، فأُمر بترك الجهر سداً

للذريعة، كما نهي عن سب الأصنام لذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾** ﴾.

الثاني : إن جماعة من المفسرين حملوا الآية على الذاكر حال قراءة القرآن، وأنه أمر له بالذكر على هذه الصفة تعظيماً للقرآن أن ترفع عنه الأصوات، ويقويه اتصالها بقوله تعالى: وإذا قُرِئ القرآنُ فاستمعوا له وأنصتوا.

الثالث : ما ذكره الصوفية أن الأمر في الآية خاص بالنبي ﷺ الكامل المكمل، وأما غيره – ممن هو محل الوساوس والخواطر الرديئة – فمأمور بالجهر، لأنه أشد تأثيرًا في دفعها، ويؤيده من الحديث ما أخرجه البزار عن معاذ بن جبل ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: ((**من صلَّى منكم بالليل فليجهر بقراءته فإن الملائكة تصلي بصلاته، وتسمع لقراءته، وإنَّ مؤمني الجن الذين يكونون في الهواء، وجيرانه معه في مسكنه يصلون بصلاته، ويستمعون قراءته، وإنه ينطرد بجهره بقراءته عن داره وعن الدور التي حوله فُساق الجن ومردة الشياطين**)).

ثانياً: ذكر اللسان وذكر القلب: قال الإمام النووي (رحمه الله) :الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل .ثم لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به الرياء، بل يذكر بهما جميعاً، ويقصد به وجه الله تعالى.

ثالثاً: الذكر المنفرد والذكر مع الجماعة: العبادات مع الجماعة – وفيها ذكر الله تعالى – تزيد في الفضل على العبادة في حالة الانفراد؛ ففي الجماعة تلتقي القلوب، ويكون التعاون والتجاوب، ويستقي الضعيف من القوي، والمُظْلم من المنور، والكثيف من اللطيف، والجاهل من العالم وهكذا.

وأما الذكر منفرداً :فله أثر فعال في صفاء القلب وإيقاظه، وتعويد المؤمن على الأنس بربه والتنعم بمناجاته، والشعور بقربه .فلا بد للمؤمن من جلسة يذكر الله خالياً منفرداً بربه

بعد أن يحاسب نفسه ويطلع على عيوبه وأخطائه، فإذا ما رأى سيئة؛ استغفر وتاب وإذا ما رأى عيباً؛ جاهد نفسه للتخلص منه.

رابعاً: الذكر المقيد والذكر المطلق: أما الذكر المقيد : فهو الذي ندبنا إليه رسول الله ﷺ مقيداً بزمان خاص أو مكان خاص؛ كالذكر بعد أداء كل صلاة، من تسبيح وتحميد وتكبير، وأذكار المسافر والآكل والشارب، وأذكار النكاح، وأذكار تقال عند الشدة ودفع الآفات والمصائب، وعند المرض والموت وما يتعلق ما، وبعد صلاة الجمعة وليلتها، وعند رؤية الهلال، وإفطار الصائم، وأذكار الحج بأنواعها، وأذكار تقال في الصباح والمساء، وعند النوم والاستيقاظ، وأذكار الجهاد في سبيل الله وغير ذلك.

وأما الذكر المطلق : فهو ما لم يقيد بزمان ولا مكان، ولا وقت ولا حال، ولا قيام ولا قعود، فالمطلوب من المؤمن أن يذكر ربه في كل حال حتى لا يزال لسانه رطباً بذكر الله، والآيات في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٣٥﴾ ﴾. وغيرها من الآيات التي تدعو إلى الإكثار من ذكر الله مطلقاً دون تقييد بزمان ومكان، كما أن الرسول الأعظم ﷺندبنا إلى ذكر الله مطلقاً في جميع أحوالنا وأوقاتنا .

وكما أن الذكر منه مقيد بزمن، ومنه مطلق عن ذلك، فكذلك الذكر منه مقيد بعدد، ومنه مطلق عن العدد، أما المقيد بالعدد فكالتسبيح دبر كل صلاة، وكالتحميد والتكبير.

الفصل السابع

ابن عربي ووحدة الوجود

ابن عربي: هو محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي ، أحد أشهر المتصوفين لقَّبَهُ أتباعه وغيرهم من الصوفيين" بالشيخ الأكبر" ولذا تُنسب إليه الطريقة الأكبرية الصوفية.ولد في الأندلس في شهر رمضان عام (٥٥٨هـ) ، وتوفي في دمشق عام(٦٣٨هـ) .ودفن في سفح جبل قاسيون.

وحدة الوجود

اختلف علماء النظر في موقفهم من العارفين المحققين القائلين بوحدة الوجود على موقفين:

الأول: تسرع باتهامهم بالكفر والضلال وفهم كلامهم على غير المراد.

الثاني: لم يتورط بالتهجم عليهم فتثبت في أمرهم ورجع إليهم ليعرف مرادهم.

والعلماء العارفون لم يبحثوا في هذه المسألة بحثاً يزيل الإشكال عند علماء النظر مع توسعهم في هذه المسألة، وذلك لأنهم دونوا ذلك لأنفسهم وتلاميذهم لا لمن لم يشهد هذه المسألة من غيرهم، لذلك احتاج الأمر للإيضاح والتحقيق لتطمئن به قلوب أهل التسليم من علماء النظر.

ومن العلماء الذين حققوا في هذه المسألة وفهموا المراد منها العلاّمة مصطفى كمال الشريف في كتابه رسالة وحدة الوجود إذ قال: ((الوجود واحد، لأنه صفة ذاتية للحق ﷻ وهو واجب فلا يصح تعدده، والموجود هو الممكن وهو العالَمُ فصح تعدده باعتبار حقائقه. وقيامه إنما هو بذلك الوجود الواجب لذاته، فإذا زال بقي الوجود كما هو، فالموجود غير الوجود فلا يصح أن يقال الوجود إثنان (وجود قديم ووجود حادث) إلا أن يراد بالوجود الثاني الموجود من إطلاق المصدر على المفعول، فعلى هذا لا يترتب شيء من المحاذير التي ذكرها أهل النظر على وحدة الوجود القائل بها أهل التحقيق .... إلى أن قال: الحِسُّ لا يرى إلا الهياكل أي الموجود، والروح لا تشهد إلا الوجود وإذا شهدت الموجود فلا تشهده إلا ثانياً على حدِّ مَن قال: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله، وأراد بهذه الرؤية الشهود لا رؤية البصر، لأن الرؤية من خصائص البصر، والشهود من خصائص البصيرة، لذلك ورد: أشهد أن لا إله إلا الله ولم يرد أرى بل ولا يصح أن يقال: أرى)).

ويذكر الشيخ عبدالقادر عيسى في كتابه حقائق عن التصوف إيضاحاً وتبسيطاً لهذه المسألة فيقول:

الوجود نوعان: وجود قديم أزلي، وهو واجب وهو الحق ﷻ قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ** ﴾، أي الثابت الوجود، المحَقَّق.

ووجود جائز عرضي ممكن، وهو وجود من عداه من المحدَثات.

وإن القول بوحدة الوجود وأن الوجود واحد هو الحق تعالى يحتمل معنيين:

أحدهما حق، والثاني كفر، ولهذا فالقائلون بوحدة الوجود فريقان:

الفريق الأول: أرادوا به إتحاد الحق بالخلق، وأنه لا شيء في هذا الوجود سوى الحق، وأن الكل هو، وأنه هو الكل، وأنه عين الأشياء وفي كل شيء له آية تدل على أنه عينه... فقوله هذا كفر وزندقة وأشد ضلالة من أباطيل اليهود والنصارى وعبدة الأوثان. وقد شدد الصوفية النكير على قائله وأفتوا بكفره وحذّروا الناس من مجالسته.

الفريق الثاني: قالوا ببطلان وكفر ما ذُكِرَ من أن الخالق عين المخلوق وإنما أرادوا بوحدة الوجود وحدة الوجود القديم الأزلي، وهو الحق سبحانه فهو لاشك واحد منزه عن التعدد، ولم يقصدوا بكلامهم الوجود العرضي المتعدد وهو الكون الحادث نظراً لأن وجوده مجازي وفي أصله عَدَميٌّ لا يضر ولا ينفع، فالكون معدوم في نفسه هالك فانٍ في كل لحظة، قال تعالى: ﴿ **كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجهَهُ** ﴾، وإنما يُظهره الإيجاد ويُثبته الإمداد. الكائنات ثابتة بإثباته، وممحوةٌ بأحدِّيَة ذاته، وإنما يُمسكه سر القيومية فيه.

وعلى كل فالأَولى بالصوفي في هذا الزمان أن يبتعد عن الألفاظ والتعابير التي فيها إيهام أو غموض أو اشتباه التي لا يفهما غيرهم من الرموز والإصطلاحات والإشارات لئلا يقع الناس في سوء الظن أو تأويل الكلام على غير مقصوده، والصوفية مُبَرَّؤُون مما نُسِبَ إليهم من القول بوحدة الوجود والحلول والإتحاد وكلامهم مؤول على وجه شرعي موافق لما عليه أهل السنة والجماعة من العقيدة الصحيحة السليمة، وأنهم ما نالوا هذه المواهب العرفانية إلا بالتمسك بالكتاب والسنة وأنهم حقيقة رجال السلف الصالح رضي الله عنهم الذين تمسكوا بهدي رسول الله ﷺ وتحققوا بالإتباع الكامل له عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثامن

منهج الصوفية في تفسير النص الديني

يعتمد منهج الصوفية في تفسير النص الديني على تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، ولا يرى الصوفي أن تأويله للآية هو كل ما يراد منها بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله ويسمى هذا التفسير بالتفسير الصوفي الإشاري.

قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله في "لطائف المنن": ((اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ بالمعاني الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان، وثم أفهامٌ باطنةٌ تُفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله على قلبه)).

وقال الغزالي رحمه الله في "الإحياء:" ((وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب. ويكون لكل واحد حد في الترقي إلى درجة أعلى منه. فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً. فأسرار كلمات الله لا نهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله ﷻ. فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغني عنه)).

ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله ﷺ في سجوده: (**أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**)، أنه قيل له اسجد واقترب، فوجد القرب في السجود، فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض فإن الرضا والسخط وصفان. ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه، فرقي إلى الذات فقال "أعوذ بك منك". ثم زاد قربه بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فأثنى بقوله "لا أحصي ثناء عليك". ثم علم أن ذلك قصور فقال " أنت كما أثنيت على نفسك)).

فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب. ثم لها أغوار وراء هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة، ومنه به. وأسرار ذلك كثيرة. ولا يدل تفسيرٌ ظاهرٌ عليه وليس اللفظ هو مناقضاً لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر".

ويقول الشيخ خالد عبد الرحمن في كتابه "أصول التفسير وقواعده": ((والإمام الغزالي الذي لا يمنع تفسير القرآن تفسيراً صوفياً، وإن كان يعارض التوسع فيه إلى حد الاعتماد على الرموز والإشارة- يفسر: {**فاخلع نعليك**} بقوله: من يريد إدراك الوحدانية الحقيقية يجب عليه أن يطرح عن نفسه التفكير في الحياتين الدنيا والأخرى: أي أن يُقبل على الله دون غرض وكل ما يفكر فيه هو رضا الله ومحبته))

ويعقب الغزالي على هذا التفسير بقوله: ((لا تظن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة مني في رفع الظواهر، واعتقاداً في إبطالها، حتى أقول مثلاً: لم يكن مع موسى نعلان، ولم يسمع الخطاب بقوله: {فاخلع نعليك}، حاشا لله، فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالَمَين، وجهلوا جهلاً بالموازنة بينهما، فلم يفهموا وجهه، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية، فالذي يجرد الظاهر حشوي، والذي يحرر الباطن باطني، والذي يجمع بينهما كامل ... بل أقول: موسى فهم من الأمر بخلع النعلين، إطراح الكونين، فامتثل الأمر ظاهراً بخلع النعلين، وباطناً بخلع العالمين)).

إن الكثير من هذه الإشارات لا يقصد بها الجزم بأن الله تعالى قد أراد هذا المعنى دون ظاهره وإنما القصد منها الاستئناس بكلام الله وضرب المثل بمعاني كتابه.

يقول الآلوسي رحمه الله: ((وأما كلام السادة الصوفية في القرآن الكريم فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف إلى أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، وذلك من كمال الإيمان لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلاً، وإنما المراد الباطن فقط إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة توصلوا به إلى نفي الشريعة بالكلية، وحاشى سادتنا من ذلك كيف وقد حظّوا على حفظ التفسير الظاهر وقالوا: لا بد منه أولاً ومن إدعى فهم أسرار

القرآن قبل أحكام التفسير الظاهر فهو كمن إدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب)).

ويستدل السادة الصوفية على منهجهم هذا في التفسير بقول رسول الله ﷺ: (**أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن**).

ومما تقدم يتبين أن منهج الصوفية في تفسير النص الديني هو منهج إشاري يعتمد على الإشارة إلى ما تحمله الآيات من إشارات خفية تظهر لمن صقلوا بواطنهم بالرياضات الروحية والأذكار فصفت من الأكدار فنظرت في آيات القرآن فانجلى لها من المعاني ما لم ينجلي لغيرها من العوام فتكلموا بها، كما أنهم لم يعطلوا ظواهر النصوص بل يمكن الجمع بين ما تدل عليه الآية ظاهراً مع ما فيها من الإشارات الخفية التي أشاروا لها.

الفصل التاسع

الملامتية

اسم (الملامتية) اشتهر على طائفة من صوفية المسلمين، بدأت على مستوى نفسي وشخصي ثم انتقلت بعد ذلك إلى المجال العلمي لتصبح شعاراً لجماعة مخصوصة من الصوفية عرفوا بإسم الملامتية أو أهل الفتوة. وترجع الفكرة في أساسها إلى الآية القرآنية التي تصف النفس بأنها لوّامة: ﴿ **وَلا أُقسِمُ بِالنَفسِ اللَّوامَة** ﴾، والمقصود بها النفس التي تتردد بين الوقوع المتكرر في المعصية والإحساس المتكرر أيضاً بالذنب فهي تلوم ذاتها أو يلومها صاحبها باستمرار. ولهذا استخدمت صيغة المبالغة (لوَّامة): أي كثيرة اللوم لذاتها على ما صدر منها. ولوم النفس يبدأ من محاسبتها، وفي أدبيات التصوف نجد من يحاسب نفسه في المساء على ما ارتكب طوال اليوم من أفعال، ثم على ما تفوه به من أقوال، وكذلك كل ما جال بخاطره من نوايا ورغبات شريرة، وهكذا فإن لوم النفس يبدأ من محاسبتها التي اشتهر بها الحارث المحاسبي المتوفى سنة٢٤٣هـ رحمه الله، وتحدث عنها كثيراً الحكيم الترمذي المتوفى سنة٢٨٥هـ رحمه الله ، كما نجد لدى ابن عربي المتوفى سنة٦٣٨هـ رحمه الله كتاباً كاملاً في محاسبة النفس.

أما تاريخ نشأة الملامتية، فإن مؤرخوا التصوف المسلمون أرجعوا نشأتها إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وبالتحديد في منطقة خراسان إذ ظهر فيها صوفية كبار من أمثال حمدون القصار المتوفى سنة ٢٧٠هـ رحمه الله، وأبي حفص النيسابوري المتوفى سنة ٢٦٧هـ رحمه الله، تبعهما عدد كبير من شباب الصوفية الذين التزموا بعض التعاليم وطبقوا في حياتهم بعض الأساليب الخاصة بهم والتي حددها لهم شيوخهم.

وأول صوفي أفردهم بالكتابة هو الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي (ت٤١١هـ) في رسالته «أصول الملامتية»، وقد قرر في صدرها أنه لا يوجد لهم كتب مصنفة، ولا حكايات مؤلفة، وإنما هي أخلاق وشمائل ورياضات . وعن الشيخ حمدون القصار أنه سُئل عن طريق الملامتية فقال: ((ترك التزين للخلق بكل حال، وترك طلب رضاهم في نوع من الأخلاق والأفعال، وألا يأخذك فيما عليك لله لومة لائم بحال)).

وروى جواب بعض شيوخ الملامتية عن أصل طريقتهم: ((تذليل النفس وتحقيرها، ومنعها مما تسكن إليه، أو يكون لها فيه راحة وإليه ركون)) .

وهكذا نشأت الملامتية معتمدة على مبدأين:

الأول: لوم النفس على كل ما فيها من رغبات ونزعات وإعجاب بالذات نتيجة القيام بحق العبادة وحسن معاملة الخلق.

الثاني: استحقاق أو استجلاب لوم الناس على سلوك أتباعها الذين يخرجون عن الإلتزام بالمظاهر الدينية السائدة في المجتمع.

وعلى الرغم من النقد الذي وجه إلى طائفة الملامتية من الفقهاء ومن بعض الصوفية أنفسهم، فقد استمر شيوخ الملامتية وأتباعها يقومون بدورهم الذي اختاروه لأنفسهم ويزداد اتصالهم بالطبقات الفقيرة والمهمشة في المجتمع ويساعدون العجزة والأرامل واليتامى والمساكين، ويسعون في قضاء مصالح المحتاجين، ولعل هذا ما جعلهم يستحقون أن يُطلق عليهم لقب الفتيان أو أهل الفتوة.

الفصل العاشر

نظرية الحلول والإتحاد

إن من أهم ما يتحامل به المغرضون على السادة الصوفية اتهامهم جهلاً وزوراً بأنهم يقولون بالحلول والاتحاد، بمعنى أن الله ﷻ قد حلَّ في جميع أجزاء الكون؛ في البحار والجبال والصخور والأشجار والإنسان والحيوان، أو بمعنى أن المخلوق عين الخالق فكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة في هذا الكون هي ذات الله تعالى وعينه. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ويرى الصوفية أنه لاشك أن هذا القول كفر صريح يخالف عقائد الأمة الإسلامية. فالصوفية ينفون هذه التهمة عن أنفسهم جملةً وتفصيلاً، ويحذرون من أن يرميهم أحد بهذه العقيدة الكفرية جزافاً دون تمحيص أو تثبت، ومن غير أن يفهم مرادهم، ويطلع على عقائدهم الحقة التي ذكروها صريحة واضحة في أُمهات كتبهم، كالفتوحات المكية، وإحياء علوم الدين، والرسالة القشيرية وغيرها.

ولبيان الحقيقة الناصعة نورد نبذاً من كلام السادة الصوفية تثبت براءتهم مما اتُّهموا به من القول بالحلول والإتحاد وتحذيرهم الناس من الوقوع في هذه العقيدة الزائغة وتُظهر بوضوح أن ما نسب إليهم من أقوال تفيد الحلول والإتحاد إما مدسوسة عليهم أو مؤولة بما يلائم هذه النصوص الصريحة التالية الموافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة.

يقول الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله: ((ولعمري إذا كان عُبَّاد الأوثان لم يتجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله؛ بل قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فكيف يُظَن بأولياء الله أنهم يدَّعون الاتحاد بالحق على حدٍّ ما تتعقله العقول الضعيفة؟! هذا كالمحال في حقهم ، إذ ما مِن وليٌّ إلا وهو يعلم أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق، وأنها خارجة عن جميع معلومات الخلائق، لأن الله بكل شيء محيط)).

والحلول والإتحاد لا يكون إلا بالأجناس، والله تعالى ليس بجنس حتى يحلَّ بالأجناس، وكيف يحل القديم في الحادث، والخالق في المخلوق!؟ إن كان حلولَ عَرَض في جوهر فالله تعالى ليس عرضاً، وإن كان حلول جوهر في جوهر فليس الله تعالى جوهراً، وبما أن الحلول

والإتحاد بين المخلوقات محال؛ إذ لا يمكن أن يصير رجلان رجلاً واحداً لتباينهما في الذات؛ فالتباين بين الخالق والمخلوق، وبين الصانع والصنعة، وبين الواجب الوجود والممكن الحادث أعظم وأولى لتباين الحقيقتين.

وما زال العلماء، ومحققوا الصوفية يبينون بطلان القول بالحلول والإتحاد، وينبهون على فساده، ويحذرون من ضلاله.

قال الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله في عقيدته الصغرى: ((تعالى الحق أن تحله الحوادث أو يحلها)).

وقال في عقيدته الوسطى: ((اعلم أن الله واحد بالإجماع، ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء، أو يحل هو في شيء، أو يتحد في شيء))

وقال في باب الأسرار: ((لا يجوز لعارف أن يقول: أنا الله، ولو بلغ أقصى درجات القرب، وحاشا العارف من هذا القول حاشاه، إنما يقول: أنا العبد الذليل في المسير والمقيل)).

وقال في باب الأسرار أيضاً: ((من قال بالحلول فهو معلول، فإن القول بالحلول مرض لا يزول، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول)).

وقال أيضاً في الباب الثاني والتسعين ومائتين: ((من أعظم دليل على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم، أن تعلم عقلاً أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها، وإنما كان القمر محلاً لها، فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شيء ولا حل فيه)).

قال صاحب كتاب نهج الرشاد في الرد على أهل الوحدة والحلول والاتحاد: ((حدثني الشيخ كمال الدين المراغي قال: اجتمعتُ، بالشيخ أبي العباس المرسي – تلميذ الشيخ الكبير أبي الحسن الشاذلي – وفاوضْته في هؤلاء الاتحادية، فوجدته شديد الإنكار عليهم، والنهي عن طريقهم، وقال: أتكون الصنعة هي عين الصانع؟))

وأما ما ورد من كلام الصوفية في كتبهم مما يفيد ظاهره الحلول والاتحاد، فيقولون: أنه إما مدسوس عليهم، بدليل ما سبق من صريح كلامهم في نفي هذه العقيدة الضالة. وإما أنهم لم يقصدوا به القول بهذه الفكرة الخبيثة والنحلة الدخيلة ، ولكن المغرضين حملوا المتشابه من كلامهم على هذا الفهم الخاطئ، ورموهم بالزندقة والكفر.

أما الراسخون في العلم والمدققون المنصفون من العلماء فقد فهموا كلامهم على معناه الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة، وأدركوا تأويله بما يناسب ما عرف عن الصوفية من إيمان وتقوى.

قال العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله: ((واعلم أنه وقع في عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد، إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد، فإن الاتحاد عندهم هو المبالغة في التوحيد. والتوحيد معرفة الواحد والأحد، فاشتبه ذلك على من لا يفهم إشاراتهم، فحملوه على غير محمله ؛ فغلطوا وهلكوا بذلك.. إلى أن قال: فإذن أصل الاتحاد باطل محال، مردود شرعاً وعقلاً وعرفاً بإجماع الأنبياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين، وليس هذا مذهب الصوفية، وإنما قاله طائفة غلاة لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعالى ، فشابهوا بهذا القولِ النصارى الذين قالوا في عيسى : اتَّحَد ناسوتُهُ بلاهوتِهِ. وأما مَنْ حفظه الله بالعناية، فإنهم لم يعتقدوا اتحاداً ولا حلولاً، وإن وقع منهم لفظ الاتحاد فإنما يريدون به محو أنفسهم، وإثبات الحق سبحانه. وقال: وقد يُذْكَر الاتحاد بمعنى فناء المخالفات، وبقاء الموافقات، وفناء حظوظ النفس من الدنيا، وبقاء الرغبة في الآخرة، وفناء الأوصاف الذميمة، وبقاء الأوصاف الحميدة، وفناء الشك، وبقاء اليقين، وفناء الغفلة وبقاء الذكر.

وقال: وأما قول أبي يزيد البسطامي رحمه الله :(سبحاني، ما أعظم شأني) فهو في معرض الحكاية عن الله، وكذلك قول من قال: (أنا الحق) محمول على الحكاية، ولا يُظَنُّ بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد، لأن ذلك غير مظنون بعاقل، فضلاً عن المتميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات. ولا يُظَنُّ بالعقلاء المتميزين على أهل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهدة وحفظ حدود الشرع الغلطُ بالحلول والاتحاد، كما غلط النصارى في

ظنهم ذلك في حق عيسى. وإنما حدث ذلك في الإسلام من واقعاتِ جهلةِ المتصوفة، وأما العلماء العارفون المحققون فحاشاهم من ذلك..إلى أن قال: والحاصل أن لفظ الاتحاد مشترك، فيطلق على المعنى المذموم الذي هو أخو الحلول، وهو كفر. ويطلق على مقام الفناء اصطلاحاً اصطلح عليه الصوفية، ولا مشاحة في الاصطلاح، إذ لا يمنع أحد من استعمال لفظ في معنى صحيح، لا محذور فيه شرعاً، ولو كان ذلك ممنوعاً لم يجز لأحد أن يتفوه بلفظ الاتحاد، وأنت تقول: بيني وبين صاحبي زيد اتحاد. وكم استعمل المحدِّثون والفقهاء والنحاة وغيرهم لفظ الاتحاد في معان حديثية وفقهية ونحوية.

كقول المحدِّثين: اتحد مخرج الحديث.

وقول الفقهاء: اتحد نوع الماشية.

وقول النحاة: اتحد العامل لفظاً أو معنى.

وحيث وقع لفظ الاتحاد من محققي الصوفية، فإنما يريدون به معنى الفناء الذي هو محو النفس، وإثبات الأمر كله لله سبحانه، لا ذلك المعنى المذموم الذي يقشعر له الجلد)).

نقل الشيخ الشعراني عن الشيخ علي بن وفا رحمهما الله قوله: ((المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم فناء العبد في مراد الحق تعالى، كما يقال: بين فلان وفلان اتحاد، إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه)).

قال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه مدارج السالكين: ((وإن كان مشمراً للفناء العالي، وهو الفناء عن إرادة السوى، لم يبق في قلبه مراد يُزاحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني، بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب تعالى هو عين مراد العبد، وهذا حقيقة المحبة الخالصة، وفيها يكون الإتحاد الصحيح، وهو الإتحاد في المراد لا في المريد ولا في الإرادة)).

وقال الشيخ ابن تيمية رحمه الله في تبرئة الصوفية من تهمة القول بالاتحاد، ومؤولا لكلامهم تأويلاً صحيحاً سليماً: ((ليس أحد من أهل المعرفة بالله، يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات، ولا اتحاده به، وإن سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر

الشيوخ فكثير منه مكذوب، اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية ، الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية)).

وقال أيضاً: ((وأما قول الشاعر في شعره: (أنا مَنْ أهوى، ومَنْ أهوى أنا) فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي، كاتحاد أحد المحبّين بالآخر، الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويقول مثل ما يقول، ويفعل مثل ما يفعل؛ وهذا تشابه وتماثل، لا اتحاد العين بالعين، إذا كان قد استغرق في محبوبه، حتى فني به عن رؤية نفسه)).

من هذه النصوص المتعددة تبين لنا أن كل ما ورد في كلام السادة الصوفية من كلمة (إتحاد) إنما يراد بها هذا الفهم السليم الذي يوافق عقيدة أهل السنة والجماعة، ولا يصح أن نحمل كلامهم على معان تخالف ما صرحوا به من تبنِّيهم لعقيدة أهل السنة والجماعة.

القسم الثاني

الأخلاق

الفصل الأول

تعريفات علم الأخلاق

تمهيد:

لا شكّ بأنّ الأخلاق هي سمة المجتمعات الرّاقية المتحضّرة، فأينما وُجِدَت الأخلاق فثمّة الحضارة والرّقي والتّقدم، ولما أرسل الله تعالى نبيّه محمّد -عليه الصّلاة والسّلام- جعل من مَهمّات دعوته وصميم رسالته أن يُتمّ الأخلاق ويُكمّلها، فالأخلاق موجودة راسخةٌ برسوخ الأمم ونشوئها قبل النبوّة والبعثة، غير أنّها كانت ناقصةً مسلوبة الروح والمضمون، فجاءت الشّريعة الإسلاميّة لتُكمّلها وتُلبسها لباساً يُجمّلها ويَجعلها في أحسن صورة، والأخلاق الحسنة هي حالة إنسانيّة سلوكيّة يسعى كثيرٌ من النّاس الباحثين عن الكمال للوصول إليها وإدراكها، والأخلاق ترفع درجة الإنسان في الحياة الدّنيا وفي الآخرة، فالنّاس يُحبّون صاحب الأخلاق الحسنة الحميدة ويتقرّبون إليه ويتمنّون صحبته وصداقته، وهي كذلك ترفع درجة المؤمن عند ربّه جلّ وعلا، بل وتجعله من أقرب النّاس مَجلساً إلى رسول الله

ﷺ يوم القيامة، وقد ورد عن النبيّ -عليه الصّلاة والسّلام- أنه قال: (**إنَّ أحَبَّكم إليَّ وأقرَبَكم منِّي في الآخرةِ أحاسِنُكم أخلاقًا وإنَّ أبغَضَكم إليَّ وأبعَدَكم منِّي في الآخرةِ أسوَؤُكم أخلاقًا المُتشدِّقونَ المُتفيهقونَ الثَّرثارونَ**).

وقبل الدخول في تعريف علم الأخلاق لا بد من الوقوف على ما هو المراد من الأخلاق لغةً واصطلاحاً، **فالأخلاق في اللغة**: جَمع خُلُق، وهو الطبع والسَّجية والدِّين، وتعني الأخلاق أيضاً: حالٌ للنَّفْس رَاسِخَةٌ تَصدُرُ عنها أفْعالُ الخَير أو الشرِّ مِن غير حاجةٍ إلى تَفكّر أو تمهّل، بل تصدر بناءً على ما يتلازم مع الطبع والعادة، وهي مجموعةٌ من الصِّفاتِ البشريَّةِ والسُّلوكياتِ التي يمكن وصفها بالحُسنِ أو القُبْح.

أما في الإصطلاح: فيمكن تعريف الأخلاق بجملةٍ من التعريفات الاصطلاحيّة، وذلك بناءً على نظرة العلم الخاص بذلك التعريف للأخلاق، ومن تعريفاتها في اصطلاحات العلماء ما يأتي: **الأخلاق في الاصطلاح الفلسفيّ**: عرَّف بعض علماء الفلسفة كأَرسطو وأفلاطون وغيرهم أنّ الأخلاق هي: ((القدرة على التّمييز بينَ الخيرِ والشَّر عند الأفراد))، ويمكن تعريفها أيضاً من المنظور الفلسفي بأنّها: ((الفضيلة التي يَتغلَّبُ فيها الجانِبُ الإلهيُّ على جانِبِ الشهوات وتفضيل المحبوبات والمرغوبات))، ويَرى بعض الفلاسفة أنَّه يمكن تعريف الأخلاق بأنّها: ((القدرة على ضبط الشَّهَواتِ بالعَقلِ ومُمارسَة الفَضائِل والمكارم من الصفات وتمييز الحسن منها من القبيح)). **والأخلاق في الاصطلاح الإسلاميِّ**: يمكن تعريف الأخلاق في الاصطلاح الإسلاميّ بأَنَّها: مَجموعَة من المبادئ والقَواعد التي يُحدِّدُها الوحيُ الذي يكون مصدره الله ﷻ أو الرسول ﷺ ، وتقوم تلك القواعد بتنظيمِ حياةِ النّاسِ جميعاً، وتوجيه سلوكياتهم على نحوٍ يُحقِّقُ الغايَةَ من وُجودِهم، ويمكن بها تمييزهم عن باقي البشر، ممّا يجعل حياتهم تسير وفق قواعد وأحكام الدين وضوابطه. وقد عرّفها الجَرجانيّ بأنَّها: ((الطِّباعُ والسُّلوكياتُ التي تَصدُر بعفوية مطلقة عن الإنسانِ دون انتظار رأي أو تمهّل في اتّخاذ القرار للتصرّف بتلك السلوكيّات، وتعتَمدُ تلك السلوكيّات بشكلٍ خاصّ على ما يَرسخُ في النَّفْسِ مِن حُسْنٍ وقُبْحٍ، ويَنْعَكِسُ عَنها مِن غَيْر فِكرٍ وتدبُّرٍ ورَويَّة)).

تعريف علم الأخلاق: علم الأخلاق كعلم له مبادئه وأصوله وقواعده فقد عرفه البعض بأنه:

-((علم العادات)).

- وعرفه البعض الآخر بأنه: ((علم الخير والشر)).

- وهناك من عرفه بأنه: ((علم القواعد التي تحمل مراعاتها المرء على فعل الخير وتجنب الشر ويصل بالعمل بها إلى المثل الأعلى للحياة)).

-وقيل أيضاً: ((علم الأخلاق: هو العلم الباحث عن محاسن الأخلاق ومساوئها والحثّ على التحلّي بالأخلاق الحسنة والتخلّي عن الأخلاق السيّئة)).

أما التعريف الشامل : فهو علم الفضائل وكيفية إقتنائها ليتحلّى بها الإنسان، وعلم الرذائل وكيفية إجتنابها ليتخلى عنها والإلمام بجميع القواعد التي بإتباعها يكون عمل الإنسان خيراً وتكون حياته سعيدة.

وعلم الأخلاق في الإسلام لا يهتم فقط بتقييم السلوك الإنساني ووضع المقاييس والمعايير التي يقوم على أساسها، ولكنه يهتم أيضاً بإصلاح السلوك وعلاجه إذا إنحرف حيث تعتبر الرذائل عند علماء الإسلام أمراضاً نفسية تتطلب العلاج، ومن أجل هذا كان علم الأخلاق عندهم صناعة تستهدف علاج الأمراض وحفظ الصحة، وغايته تحقيق السعادة، ولا يقتصر علم الأخلاق في الإسلام على تنظيم السلوك وتوجيهه لنيل السعادة وتحقيقها في الدنيا، وإنما يهدف إلى الفوز بالسعادة في الدارين: الدنيا والآخرة كذلك فإنه يعتمد بالدرجة الأولى على مصادر الإسلام الأساسية (القرآن الكريم، والسنة النبوية) وغيرهما من مصادر المعرفة الإسلامية.

الفصل الثاني

أهمية علم الأخلاق وفائدته

إنّ أهمية الأخلاق الإسلامية تكمن في كونها الركن المعنوي الذي يحدد سلوك الفرد ويعد بمثابة الروح لكل بناء إنساني سواء في مجال الأسرة أو المجتمع، وبذلك يكون تأثيرها على السلوك الفردي على اعتبار أن التصرفات تابعة للمعاني والصفات المستقرة في النفس وتتجلى أهميتها من خلال أمرين: الأمر الأول: كثرة النصوص القرآنية، والأمر الثاني: الأحاديث النبوية التي تحث على مكارم الأخلاق، مع تنوع مواضيعها، وتعدد معالجاتها لكثير من المشكلات الاجتماعية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، لذلك سنذكر بعضاً من تلك النصوص الكريمة والأحاديث الشريفة ومنها:

قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣** ﴾.

فالنص الأول يشير إلى التزكية الباطنة، والذي بعده يشير إلى الترجمة العملية للتزكية الباطنة. ومن الأحاديث التي تبين أهميتها :

قوله (ﷺ): ((**إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**)

وقد شمل الدِّينُ الإسلاميّ كافّة الأخلاقِ والمكارم الحميدة والخصال الطيّبة، وحثَّ عليها، وحبّب من التخلّق بها، ولذلك فإن تلك الأخلاق تمتاز وتتّصف بمجموعة من الصّفات التي تجعلها أثبت من غيرها من الدّيانات والأعراف، وهي راسخةٌ ثابتةٌ بثبوت تلك المصادر، وأهمّ ما يُميّز تلك الأخلاق ما يأتي:

١ – الخلود والاستمراريّة: فإن جميع الأخلاق الواردة في القرآن والسُنّة هي صفات خالدة باقية ما بقيت تلك النصوص، وحيث إنّ الله تعالى قد حفظ كتابه من التحريف والتّزييف، وحفظ سُنّة نبيه ﷺ بحفظه، حيث هيّأ لها رجالاً نقّحوها ونقُّوها ممّا دخل فيها عبر السنين من الشّوائب، فإن تلك الأخلاق المستمَدّة منها ستبقى خالدةً راسخةً.

٢- الصِّدق والدقّة: فإن منظومة الأخلاق الإسلاميّة، كما سبق الإشارة إليه، ربانيّة المصدر، وهي بذلك تتّصف بالصّدق والدقّة، حيث إنّ جميع ما جاء به ينطبق عليه هاتين الصفتين، وبما أنّ الأخلاق جزءٌ ممّا جاء به الوحي، فهما يتميّزان ويتّصفان بهاتين الصفتين اللّتين لا تنفكّان عنهما مُطلقاً، قال تعالى: (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**).

٣- الشُّمول والتَّكامُل: فإنّ الشريعة الإسلاميّة إنّما جاءت لتُصحّح الأخلاق التي كانت سائدةً في المجتمع الجاهليّ وتضبطها بضابط التديُّن، وتدعو وتجمع ما لم يكن موجوداً في تلك المرحلة، فكانت الأخلاق الإسلاميّة شاملةً مُتكاملةً، قال المصطفى -عليه الصّلاة والسّلام- في ذلك: (**إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ**).

٤- التَّوافُق العَقليّ والفِطْري: فإنّ جميع ما جاء في الشريعة من الأخلاق والفضائل إنّما جاء بحسب ما يُوافق العقل البشريّ والفطرة السّليمة، وهي تتناسب مع جميع الأمكنة والأزمنة، ولا تُناقِض العقل والمنطق والأعراف والعادات مُطلقاً.

٥- الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالجانب العملي: فإن المنظومة الأخلاقِيّة في الإسلامِ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب العمليّ في حياة المسلم، حيث إن جميع التكاليف قد دعت بمُفردها ومُجملها إلى مجموعة من القيم والأخلاق والآداب، فلا يكون تطبيق العبادة كاملاً ما لم يجرِ تطبيق ما دعت إليه من فضائل وأخلاق، يقول المصطفى -عليه الصّلاة والسّلام- في الصحيح: (**أَكمَلُ المؤمنينَ إيماناً أَحسَنُهم أَخلاقاً**).

وتتجلى فائدة علم الأخلاق من خلال معرفة أن علمَ الأخلاق يبحث عن محاسن الأخلاق ومساوئها ويحثّ على التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن السيّئة وأنّ باطن الإنسان، والذي أهم من ظاهره ومظهره يتوقّف تحسينه وتهذيبه على تهذيب الأخلاق التي هي الأفعال المعبّرة عن الباطن وتعرب عنه، وبالتالي حياة الإنسان الحقيقيّة وصورته النهائيّة التي أراد الله سبحانه تعالى له أن يكون عليها بها عرفنا شرف علم الأخلاق وغايته وفائدته وأنّه أشرف العلوم وأنفعها لأنّ شرف كلّ علم بشرف موضوعه أو غايته فشرف علم الطب على علم الدباغة بقدر شرف بدن الإنسان وإصلاحه على جلود البهائم، وبما أنّ موضوع

علم النفس الناطقة عن حقيقة الإنسان ولبّه وهو أشرف الكائنات وغايته كمال الإنسان، فهو من أشرف العلوم وغايته من أشرف الغايات.

الفصل الثالث

تقسيم الأخلاق

إذا كانت قضية تقسيم الأخلاق المفروضة على الإنسان تتعلق بعدّة اعتبارات: فهي باعتبارٍ تنقسم إلى أصول وفروع، وباعتبارٍ لها تقسيمٌ آخَر بحسب النظر إلى مَن يَتعامل معه الإنسان، وتقسيمٌ آخر كذلك بالنظر إلى موقع الإنسان في مجتمعه ونوع علاقته التي تربطه به.. إلى آخر ما هنالك من التقسيمات.

إذا كان الأمر كذلك فإن معرفة هذه التقسيمات لها أهميتها؛ لأن ذلك يوقِف على أهمية الخلق المتعين عليه، ويوقفه على معرفة مَن يتعلق به هذا الخلق، والمنتَظر من العاقل إذا عَرَف درجة أهمية الشيء هو أن يُقدّره حق قَدره، وإذا عَرَف صاحب الحق أعطاه إياه.

ولهذا سأعرض فيما يلي لبيانٍ مختصرٍ لبعض تقسيمات الأخلاق التي يتضح بها بعض هذه الجوانب ذات الأهمية للوصول إلى التحلي بمكارم الأخلاق.

تقسيم الأخلاق إلى أصول وفروع:

أصول الأخلاق وفروعها:

الأخلاق ليست كلها فروعاً، وليست كلها أصولاً، وإنما منها ما هو أصول، ومنها ما هو فروع، وفيما يلي التعرف على كلٍ من القسمين:

للأخلاق الحميدة أصول، وللأخلاق الذميمة أصول، والفروع تبعٌ للأصول؛ فمن حصّل أصول الأخلاق الحميدة سَهُلَ عليه التحلي بفروعها.

ويختلف الناس في تحديد أصول الأخلاق، وهو خلافٌ ربما لا يعدو أن يكون من قبيل اختلاف التعبير عن الشيء الواحد المتفَقِ عليه.

ولعلّ من المناسب أن أذكر أصول الأخلاق على الرأي الذي يوصلها إلى تسعة أصول للأخلاق الحميدة، وضدُّ كل واحدٍ منها يُعَدّ أصلاً من أصول الأخلاق السيئة، وذلك على

الوجه الآتي:

أصول الأخلاق الحميدة ... أصول الأخلاق الذميمة

١- حبُّ الحق وإيثاره ... ضدّ هذا الخلق

٢- الرحمة وفروعها وإيثارها ... ضدّ هذا الخلق

٣- قوة الإرادة ... ضدّ هذا الخلق

٤- الدافع الجماعيّ ... ضدّ هذا الخلق

٥- المحبة للآخرين ... ضدّ هذا الخلق

٦- الصبر وفروعه وظواهره ... ضدّ هذا الخلق

٧- حب العطاء وفروعه وظواهره ... ضدّ هذا الخلق

٨- سماحة النفس ... ضدّ هذا الخلق

٩- علوّ الهمة ... ضدّ هذا الخلق

وبمعرفة الإنسان لهذه الأصول وفروعها يستطيع أن يُراقب نفسه فيها ومدى التزامه بها، وإنه لمن المفيد جدّاً أن يجتهد في تتبع معنى كل أصلٍ منها وتطبيقاته وفروعه وظواهره السلوكية، وملاحظته لنفسه في كل ذلك، حتى يكتسب هذا الأصل ثم ذاك ثم الآخَر، وهكذا حتى يستكمل مكارم الأخلاق.

تقسيم الأخلاق بحسب متعلَّقها، وأهمية كل قسم منها

تنقسم أخلاق الإنسان كلها بحسب مُتعلَّقها إلى:

١- **أخلاق مع الله تعالى.**

٢- **أخلاق مع الناس.**

٣- **أخلاق مع النفس.**

٤- **أخلاق مع سائر مخلوقات الله الأخرى.**

وإذا استعمَل الإنسان الأدب والمعاملة الحميدة المتعيّنة عليه تُجاه ربه الخالق سبحانه، وتُجاه الناس، وتُجاه نفسه، وتُجاه سائر مخلوقات الله تعالى؛ فإنه يَصير بذلك صاحِبَ أخلاقٍ

حميدة؛ فإذَنْ ليس بين الإنسان وبين مكارم الأخلاق إلا التعرّف على ما يَلزمه مِن معاملةٍ مع الله، ومع الناس، ومع نفسه، ومع المخلوقات الأخرى، ثم الالتزام والتطبيق.

وفيما يلي إشارةٌ موجزةٌ إلى أصول المعاملة في هذه المجالات كلها.

خُلُق التعامل مع الله تعالى:

إنّ حق الله تعالى على الإنسان هو أعظم الحقوق على الإطلاق، والأدب مع الله سبحانه هو أوجبُ الواجبات؛ إذْ هو الخالق، وحده لا شريك له، وما عداه مخلوق؛ فلا يستوي حقُّ المخلوق مع حق الخالق بحالٍ، ولا يستوي تأدُّبُ الإنسان مع الخالق ومع أيّ مخلوق! وكما أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، فكذلك يجب أن يوحِّدَه عبادُه بالعبادة والشكر والأدب وِفَاقَ ما يقتضيه هذا المعنى.!

أصول المعاملة مع الله:

لعل أصول المعاملة مع الله تتلخص فيما يلي:

١- الإيمان به إيماناً جازماً.

٢- توحيده في أسمائه، وفي صفاته، وتوحيده بالعبادة.

٣- لزوم طاعته واجتناب معصيته، والحرص على أن لا يفقده ربه حيث أمره، وأن لا يراه حيث نهاه. سواءٌ ذلك في الغيب والشهادة، وفي السر والعَلَن، وفي العسر واليسر.

٤- تعظيم شعائر الله وحرماته، والخضوع لشرْعه.

٥- احترام كتابه وسنة نبيه محمد ﷺ ، والتأدب معهما، والتسليم لهما، ولكن على معاني نصوصهما، من غير غلوّ ولا تفريط في الفهم والتطبيق.

٦- العناية بدينه فهماً، وإيماناً، والتزاماً.

٧- إجلاله سبحانه، وتنزيهه عن كل نقْص، ووصْفه بما وَصَف به نفسه، وفْق ما جاء به كتابه وسنة نبيه محمد ﷺ واعتقاد ذلك اعتقاداً جازماً.

٨- الرضا عن الله، والرضا بقَدَره.

٩- محبته أعظمَ من كل ما سواه، وتعظيمه أكثر مما سِواه.

١٠- دوام ذِكْره وشُكْره.

١١- إحسان الظن به سبحانه بما هو أهلُهُ ﷻ .

خُلق التعامل مع الناس:

إنّ خُلُق الإنسان في التعامل مع الناس يأتي تبعاً لخُلقه في تعامله مع الله؛ فإن المتأدبَ مع ربه لا يَسَعُهُ إلا التأدب مع خَلْقه؛ ولا يَسَعُهُ إلا إتباع شَرْعِهِ وما أوجبه على عباده في معاملة بعضهم لبعض.

ولعل مِن المهم أن نتبينَ أنّ الأخلاق الحميدة الواجبة في معاملة الإنسان لأخيه الإنسان إنما يوجبها عليه ثلاثة أمورٍ هي:

الأول: حَقُّ الله وشَرْعه.

الثاني: حَقُّ أخيه الإنسان عليه – على اختلاف درجات هذه الحقوق–.

الثالث: مصلحة الإنسان ذاته في الدنيا وفي الآخرة، وما تقضي به مِن الإحسان إلى الناس والبعد عن إيذائهم.

أصول المعاملة مع الناس:

لعل أصول معاملة الإنسان للناس تتلخص فيما يلي:

١- أنْ تكون علاقته بهم قائمة على أساس علاقته مع الله؛ فتكون علاقته بهم لله سبحانه.

٢- أن تكون علاقته بهم محكومةً بشرْع الله وما أوجبه على عباده بشأن العلاقة فيما بينهم. وعندما تصبح العلائق بين الناس لله ومحكومةً بشرْع الله، فإنها تصبح خيراً وبركةً عليهم في الدنيا وفي الآخرة. وعندئذٍ تَظْهَرُ مكارم الأخلاق فيما بين الناس، وتَخْتَفي مساوئ الأخلاق لا محالة، فعلى سبيل المثال:

- يَسُودُ الحُبُّ فيما بينهم وتختفي الكراهية والحِقد.

-ويَسُودُ الاحترام المتبادَل ويختفي الازدراء المتبادَل.

-ويَسُودُ الوئام ويختفي الشِّجار.

-ويَسُودُ التعاون والتكافل، وتختفي الأنانيّة والتقاتل.

-ويَسُودُ الخير، ويختفي الشر.

-ويَسُودُ خُلُق الإحسان، ويختفي خُلُق الإساءة.

-ويَسُودُ خُلُق الإيثار، ويختفي خُلُق الأثرة.

-ويَسُودُ الصدق، ويختفي الكذب.

-ويَسُودُ العدل، ويختفي الظلم.

-ويَسُودُ خُلُق تَرْك المال الحرام، وتختفي أساليب جَمْع المال مِن أَوجُهِ الحرام.

-ويَسُودُ خُلُق إعطاء الحقوق، ويختفي العقوق ومنْع الحقوق.

-ويَسُودُ المعروف، وتَخْتفي المنكرات.

-ويَسُودُ خُلُق التطلُّع إلى الدار الآخرة، ويختفي خُلُق الشحّ والحرص على الدنيا الفانية.

وعندئذٍ يَسْعد الناس في دنياهم وفي أخراهم، ويكونون بَرَكَةً في حياتهم وبعد مماتهم.! وتتبارك الأعمار والجهود، ويُوفَّر الوقتُ والمجهود، وتَقِلُّ الحاجة إلى الخصومة، وتَقِلُّ الحاجة إلى القضاة ورجال الشُّرطة.!!

خُلُق التعامل مع النفس:

يأتي خُلُق التعامل مع النفس تبعاً لحال التعامل مع الله تعالى؛ فمن كان لله أقرب كان مِن ظُلْم نفسه أبعدَ، ومَن كان متأدباً مع الله تعالى كان لنفسه مؤدِّباً.

أصول معاملة الإنسان لنفسه:

لعل أصول معاملة الإنسان لنفسه تتلخص فيما يلي:

١- أن تكون معاملةً لله تعالى.

٢- أن تكون موافِقةً لشرع الله تعالى.

وعندئذٍ تُصبح أخلاقه مع نفسه قائمةً على الآتي:

١- تعبيد نفسه لله، وإقامتها على شرْعه.

٢- إلزامها بإخلاص العمل لله تعالى على كل حالٍ.

٣- إلزامها بالرضا عن الله، والرضا بقَدَرِ الله.

٤- إلزامها بالأدب مع الله سبحانه، على الوجه الذي بيّناه.

٥- إلزامها بالخُلُق الحسن والأدب مع الناس وسائر مخلوقات الله عز وجلّ.

٦- البعد عن ظُلْم نفسه بشيءٍ مِن أنواع الظلم، سواءٌ كان ذلك بإتْباعها هواها على خلاف الشرع وحدودِ الاستقامة، أو بمَنْعها مِن حظوظها الدنيوية المأذون فيها شرعاً أو الواجبة شرعاً، أو مَنْعها مِن الأخْذِ بالفُسْحة التي في ديننا.

وعندئذٍ تُصْبِح هذه النفس مؤمِنةً، صالحةً، عابدةً لله خاضعةً مستسلِمةً، خَيّرةً؛ فالخيرُ خُلُقٌ وسجيّةٌ لها، لا يَصْدُرُ عنها الشرُّ إلا غلطاً أو سهواً، أو هفْوةً أو زلةً لا تستقِرُّ عليها. وهذه النفس الطيبة هي التي جَعَل الله الجنة لها، فالجنة طيّبةٌ لا يَدخلها إلا طيّبٌ، كما أخبَرَنا سبحانه: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾.

خُلُق التعامل مع مخلوقات الله الأخرى:

يأتي خُلُق التعامل مع مخلوقات الله الأخرى تبعاً لحال التعامل مع الله تعالى؛ فمن كان لله أقرب كان مِن ظُلْم هذه المخلوقات أبعدَ، ومَن كان متأدباً مع الله تعالى كان لنفسه مؤدِّباً تجاه مخلوقات الله.

وما مِن شكٍ أن الشأن فيمن تأدبَ مع الله ومع الناس، ومع نفسه، أن يكون كذلك على خُلُق الاستقامة نحو بقية مخلوقات الله الأخرى.

أصول التعامل مع مخلوقات الله الأخرى:

لعل أصول التعامل مع مخلوقات الله الأخرى -وهي ما سِوى الإنسان- تتلخّص فيما يلي:

١- الالتزام نحوها بما شَرَعه الله له، مِن الأدب تجاهها، وعَدَم ظلمها.

٢- استثمارها والانتفاع بها وَفْق ما أباحه الله له وشَرَعَهُ، والبعد عن التعدي في ذلك أو التقصير فيه.

٣- التعرف على ما شرعه الله له في التعامل معها بحسب ما تدعو إليه حاجة التعامل نحوها.

٤- استشعاره كونها مخلوقةً لله تعالى، وقد تكون مؤمنةً به سبحانه. كما هو الشأن بالنسبة للملائكة، وبعض الجن، والبهائم. بل قد أَخبر الله سبحانه أن كل شيء يُسَبِّح بحمده، فقال: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِنْ مِن شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾. وهذا يَعْقِدُ نوع أُخوّة في الله بينه وبين هذه المخلوقات يجعله يستشعر حُرمتها مِن أجْله.!

والقاعدة العامّة هي أنّ جُلَّ هذه المخلوقات قد خَلقها الله للإنسان، وسَخّرها له: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ .

ومِن ذلك أنّ مِن الواجب على الإنسان أن يكون على الإحسان في كل شيء، حتى في الذبح المشروع لهذه الحيوانات، كما أخبر النبي ﷺ: (**إنّ الله كَتبَ الإحسان على كل شيء؛ فإذا قَتلتم فأحسِنوا القِتلة، ولْيُحِدَّ أحدُكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذبيحته**).

وعندئذٍ يُصْبحُ الإنسان الملتزم بما شرَعَهُ الله تجاه هذه المخلوقات كلها، إنساناً عديم الشر، بحيث لا يَصْدُرُ منه إلا خطأً، ثم يتوب مِن قريب.

ويَكْتمِل للإنسان – بما مضى كله– الخُلُق الحسن والأدب مع الله، ومع الناس، ومع الملائكة، والجن، والبهائم، وسائر المخلوقات، ومع الصديق، ومع العدوّ، وفي حال السلم وحال الحرب.

الفصل الرابع

العوامل المؤثرة في الخُلُق

إن من جملة العوامل الأساسية التي تؤثر في تكوين شخصية الإنسان وخُلُقه هي عوامل (**الوراثة، والبيئة، والعادة**) ونظراً لما تتمتّع به هذه العوامل من أهمّيّة ومساهمتها المؤثّرة في تربية الأبناء دينياً، سنتناولها بالبحث، مع التذكير بأنّ هذه العوامل تشكّل الأرضية للتربية الدينيّة والأخلاقيّة وليست علّة تامّة لها. مع التسليم بتأثيرها على الكثير من الأبعاد التربوية في شخصية الصغير والكبير.

١ – الوراثة: هي انتقال بعض خصائص الأصل إلى الفرع قلَّ ذلك أو كثر، والعامل الأساسي في ذلك هو الغرائز المودعة في فطرة الإنسان وما يتبعها من الميول والإستعدادات والقدرات العقلية وحسن تقدير الأمور أو سوءه، وشدة الإنتباه أو ضعفه إلى غير ذلك من الصفات التي يكون لها الأثر في تكوين أخلاق المرء وتكيفها وطبعها بطابع معين خيراً كان ذلك الطابع أو شراً حسناً أو قبيحاً.

وقانون الوراثة هو قانونٌ مقبولٌ من وجهة نظر الإسلام، إذ ينقل القرآن الكريم في قصّة النبي نوح عليه السلام طلبه من ربّه، ﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾، ووفقاً لهذه الآية، فإنّ الأبناء يرثون صفات آبائهم؛ الحسنة منها والسيئة. فمن المعلوم أن الأبناء كما يرثون من أمّهاتهم وآبائهم الخصائص الجسميّة، فهم يرثون منهم أيضاً الخصائص المعنوية والحالات الروحية والنفسية. مع الإشارة إلى أنّ قانون الوراثة لا يعني المطابقة في كلّ شيء، ولا يعني الجبر وعدم القدرة على تغيير هذه الخصائص، بل يبقى للإنسان القدرة على التغيير في ما لو أعمل إرادته بشكل سليم وصحيح على تغيير الكثير من هذه الصفات الموروثة وتبديلها.

وبالالتفات إلى أهمّيّة الوراثة وتأثيرها الجدّي في تشكُّل الخصائص البدنيّة والعقليّة والدّينيّة والأخلاقيّة والرُّوحيّة للأبناء، بنى الإسلام الكثير من الأحكام وفِقاً لهذا القانون المسلَّم به، على سبيل المثال:

–أوصى الإسلام في مسألة اختيار الزوج للزوجة: أن يختارها من العائلات الصالحة؛ لأنّ خصال الآباء والأمّهات تورث. روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: (**إيّاكم وخضراءَ الدِّمن، قيل يا رسول الله وما خضراء الدِّمن، قال: المرأة الحسناء في المنبت السّوء**). وقال عليه الصلاة والسلام: (**تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ، وَانْكِحُوا الْأَكْفَاءَ، وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ**).

–أكَّد الإسلام أيضاً على المرأة أن تنظر أحوال زوجها المستقبليّ، وجعل مسؤولية هذا العمل على عاتق الوليّ الشرعيّ، قال ﷺ: (**إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه**

فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)، وعنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّهَا قَالَتْ: **(إِنَّمَا النِّكَاحُ رِقٌّ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ أَيْنَ يَرِقُّ عَتِيقَتَهُ)**.

ومهما يكن للوراثة من أثر في صفات الإنسان إلا أنها ليست من الصفات الحتميّة التي لا تتغيّر ولا تتبدّل. بل إنّ هذه الصفات والموروثات مهما كانت قوية ومؤثّرة، يمكن التغلّب عليها بقوّة الإرادة والإصرار، والمثابرة والتربية. فأيّ صفة وراثية إذا ما خضعت لعملية التربية المباشرة مصحوبة بإرادة قويّة ونافذة فبالإمكان تغييرها وتبديلها من صفة سلبيّة إلى أخرى إيجابيّة؛ لأنّ الإرادة والاختيار الإنسانيين هما أقوى من أيّ موروث أو أيّ عامل خارجي آخر، فالوراثة لوحدها بالرغم من أثرها على الخصائص الجسدية والنفسية للوارث، لا تقدر على طمس معالم الفطرة، وتعطيل القدرة والاختيار الإنساني المعطى للإنسان بالأصل من أجل تقرير مصيره بيده، وقد شهدنا الكثيرين ممَّن وُلِدُوا من أبوين كافرين أو فاسقين، ولكنّهم تحرّروا في نهاية المطاف من تأثيرهما السلبي الموروث بعد مجاهدة الطبع الموروث وترويضه؛ ليكون خاضعاً لقوّة العقل والإرادة، فمهما كانت التأثيرات السلبيّة للوراثة أو التربيّة أو البيئة التي ينشأ فيها الإنسان قاسية وصعبة، يبقى الإنسان قادراً على التغيير، ويبقى مدد الهداية الإلهيّة محيطاً به على الدوام. إنّ عظمة الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين تكمن في سيرهم وتسنّمهم أعلى درجات الكمال رغم أنّهم نشأوا في بيئة مظلمة قبل الإسلام ، حيث استجابوا لنداء الفطرة والعقل المودعين في خلقة كلّ إنسان بالدعوة لنور الهداية الإسلامية فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

٢– البيئة: هي كل ما يحيط بالإنسان أو يؤثر فيه بطريق مباشر أو غير مباشر، فكل ما يؤثر في الإنسان أو يعمل على تكيفه وتكوين صفاته يعد بيئة له وعاملاً من عوامل تكوينه الخُلُقي سواء كان ذلك بيئة طبيعية، كالإقليم وما يتميز به من مناخ وسهول وجبال وتضاريس إلى غير ذلك، أو بيئة إجتماعية كأحشاء الأم والمنزل والمدرسة والأصدقاء والأندية

ونظام الحكم والعادات والتقاليد التي تسود المجتمع، ووسائل الإعلام ودور العبادة إلى غير ذلك من مكونات البيئة الإجتماعية.

فكما أن الوراثة تمد الإنسان بمادة خام من الغرائز والميول والإستعدادت وغيرها، فكذلك البيئة تهيئ لهذه الغرائز والإستعدادات الجو المناسب والفرص المتوالية والإمكانات المتاحة لتميل به إلى الخير أو الشر.

٣- العادة: في ظل وجود عاملي الوراثة والبيئة يتكوّن الخُلُق بالممارسة والإعتياد وبكثرة تكرار الفعل والمواظبة عليه، فعندما يراد تكوين خُلُق معين لدى المرء لم يكن موجوداً من قبل، أو تحويله من خُلُق ذميم إلى آخر حميد يُحمل المرء على إتيان هذا العمل وتكراره مرة بعد أخرى مع استعمال وسائل الترغيب التي من شأنها أن تحبب إليه إتيان هذا الفعل الحميد والإقبال على ممارسته برغبة صادقة وميل أكيد واستخدام وسائل التنفير من ضده بحيث تصير نفرته منه وابتعاده عنه ميلاً ورغبة، بل طبيعة وخُلُقاً.

وبالمواظبة على هذا التكرار والمداومة على هذا الفعل الحميد يصبح إتيانه وممارسته عادةً لازمة، وطبعاً دائماً: أي يصير خُلُقاً له يصدر عنه تلقائياً من غير أن يسبقه تفكير وتقدير، بحيث يكون انطباعاً من انطباعات النفس وحالاً من حالاتها يحملها على الفعل من غير حاجة إلى تأمل أو رويّة، وذلك ما لخّصه الغزالي رحمه الله في تعريف الخُلُق: بأنه هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى فكر ورويّة.

ومن هنا تظهر المسئولية الكبرى الملقاة على عاتق الآباء والمربيّن والوعاظ والمرشدين في تكوين الأخلاق الحميدة في نفوس الأفراد والجماعات، ومحو كل أثر للأخلاق الذميمة كما يظهر أثر القدوة والمحاكاة والتقليد في تكوين الفضائل ومحاربة الرذائل.

الفصل الخامس

الفطرة الإنسانية وآراء العلماء فيها

لقد استخدم القرآن الكريم كلمة الفطرة في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾. وفَطَر الله الخلق؛ أي: خلقهم وابتدأ صنعة الأشياء، وهو فاطر السموات والأرض، والفطرة: التي طبعت عليها الخليقة من الدين، فطرهم الله على معرفته بربوبيته، ومنه حديث: (**كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه**).

والفطرة لغةً بمعنى: الخلقة والإيجاد.

واصطلاحاً:اختلف العلماء في تعريف الفطرة:

أ– قال بعضهم: **الفطرة: الخلقة، والفاطر: الخالق**، قال ابن عبد البر رحمه الله: قالت جماعة من أهل الفقه والنظر: أريد بالفطرة المذكورة في الحديث الخلقة التي خُلِقَ عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربّه إذا بلغ مبلغ المعرفة، يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفة ذلك، وأنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار، قالوا: وإنما يولد المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعاً وبنيّة ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة، ثم يعتقدون الكفر أو الإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا.

وقال ابن الأثير رحمه الله: معنى الفطرة الواردة في الحديث أن المولود يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيئ لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر ملازماً لها ولم يفارقها إلى غيرها.

وفي فيض الباري: ((الفطرة من مقدمات الإسلام لا عينه، فهي جبلة متهيئة لقبول الإسلام، وبعبارة أخرى هي استعداد في الولد له بُعد من الكفر وقرب من الإسلام. وبعبارة أخرى هي عبارة عن خلو نيته عما يحثه على الكفر وحينئذ حاصل الحديث أن الولد المولود

من بطن كافر ليس في بنيته جزء من الكفر ولولا القوادح والموانع لبقي أقرب إلى الإيمان وأقبل له)).

وبهذا يتبين أن مراد أصحاب هذا القول بقولهم الفطرة هي الخلقة ما يلي:

١- خلقة مخالفة لخلقة البهائم، يعرف بها ربّه إذا بلغ مبلغ المعرفة.

٢- السلامة التي ليس معها كفر ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار، ثم يعتقد بعد البلوغ.

٣- الاستعداد والتهيؤ والقبول، الذي إذا سلم من الموانع والقوادح اختار الإيمان والمعرفة، وذلك لوجود بُعد من الكفر وقرب من الإسلام في هذا الاستعداد.

اختار هذا القول ورجّحه وصحّحه جمع من أهل العلم منهم: ابن عبد البر رحمه الله،إذ قال: ((هذا القول أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها والله أعلم، وذلك أن الفطرة السلامة والاستقامة.بدليل حديث عياض عن النبي ﷺ حاكياً عن ربه ﷻ : (**إني خلقت عبادي حنفاء**)؛ يعني: على استقامة وسلامة، والحنيف في كلام العرب: المستقيم السالم)).

وكذلك السبكي رحمه الله إذ يقول: ((الذي نختاره وعليه أكثر العلماء أن المراد بالفطرة الطبع السليم المتهيئ لقبول الدين)). وممن قال به أيضاً من العلماء: الطحاوي،وابن الأثير، والقرطبي، والنووي، والآلوسي ، وغيرهم من العلماء.

أدلة وحجج أصحاب هذا القول:

١- احتجوا على أن الفطرة الخلقة والفاطر الخالق بقول الله ﷻ:﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ يعني:خالقهن، وبقوله تعالى: ﴿ **وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ أي: خلقني، وغيرها من الآيات. فقالوا الفطرة الخلقة والفاطر الخالق بدلالة القرآن الكريم والسنة المطهرة.

٢- واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام في آخر الحديث: (**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**)، وقالوا: جمعاء يعني سالمة، وجدعاء يعني مقطوعة الأذن. فمثّل قلوب بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان، ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها، فيقال هذه بحائر وهذه سوائب. وقالوا: قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر حينئذ ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار، كالبهائم السالمة، فلما بلغوا، استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم، وعصم الله أقلهم)).

ب- وقيل: **معنى الفطرة هي الابتداء، وفطر الله الخلق؛ أي: بدأهم**، ويقال: أنا فطرت الشيء؛ أي: أول من ابتدأه، فيكون المراد: البداءة التي ابتدأهم عليها؛ أي: على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت، والشقاء والسعادة، وإلى ما يصيرون عليه عند البلوغ من ميولهم عن آبائهم واعتقادهم. وذلك ما فطرهم الله عليه مما لا بد من مصيرهم إليه، فقد يفطر على الكفر، وقد يفطر على الإيمان.

واستدل أصحاب هذا القول بما روى الطبري في تفسيره، عن مجاهد، قال: سمعت ابن عباس يقول: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها؛ يقول: أنا ابتدأتها.

واحتجوا بما رواه مسلم في صحيحه، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ : (**إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا**)، فهنا أطلق على الغلام أنه كافر، وهذا باعتبار أنه فطر أول ما فطر على الكفر، فكان ابتداء خلقه أن يكون كافرًا، فهو صائر إليه لا محالة.

وردَّ هذا القول ابن عبدالبر، فقال: ((إن أراد هؤلاء أن الله خلق الأطفال، وأخرجهم من بطون أمهاتهم؛ ليعرف منهم العارف ويعترف فيؤمن، وينكر منهم المنكر فيكفر، كما سبق له القضاء، وذلك حين يصح منهم الإيمان والكفر، فذلك ما قلنا. وإن أرادوا أن الطفل يولد عارفاً مقرَّاً مؤمناً، وعارفاً جاحداً كافراً في حين ولادته، فهذا يكذبه العيان والعقل)). وقال

أيضاً: ((ليس في قوله تعالى: **كما بدأكم تعودون**، دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمناً أو كافراً؛ لما شهدت به العقول أنه في ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيماناً ولا كفراً)).

ت– وقيل: **الفطرة هي السنة**.وأصحاب هذا القول استدلوا بحديث ابن عمر، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (**من السنة قص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار**)، وفي لفظ البخاري: (من الفطرة قص الشارب.... الحديث.

قال أبو عمر بن الصلاح: هذا فيه إشكال؛ لبعد معنى السنة عن معنى الفطرة في اللغة فلعل وجهه أن أصله سنة الفطرة، أو أدب الفطرة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وإذا قلنا: إن المراد بالفطرة: السنة، فإن السنة معناها الطريقة؛ أي: إن معنى ذلك: من سنن الأنبياء والمرسلين وطريقتهم.

ث– وقيل: **الفطرة هي الإسلام**. قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل، ونسبه ابن عبد البر والقرطبي إلى أبي هريرة ، وابن شهاب وغيرهما.

واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى: (**فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**)، إذ أجمعوا على أن الفطرة هنا هي دين الإسلام.

واستدلوا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟**)، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم، ولما كان الإسلام هو دين الفطرة، لم يحتج أن يقول: فأبواه يسلمانه.ويرد هذا القول ابن عبد البر بقوله: يستحيل أن تكون الفطرة المذكورة في قول النبي (صلى الله عليه وسلم): (**كل مولود يولد على الفطرة**) الإسلام؛ لأن الإسلام والإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح. وهذا معدوم من الطفل، لا يجهل بذلك ذو عقل.

ج- وقيل: **الفطرة المقصود بها ما أخذ الله من ذرية آدم من الميثاق** قبل أن يخرجوا إلى الدنيا يوم استخرج ذرية آدم من ظهره، مستدلين بحديث ابن عباس ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: (**أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان – يعني: عرفة – فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾**). فأقروا له جميعاً بالربوبية عن معرفةٍ منهم، ثم أخرجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين مطبوعين على تلك المعرفة، وذلك الإقرار. قالوا: وليست تلك المعرفة بإيمان، ولا ذلك الإقرار بإيمان، ولكنه إقرار من الطبيعة للرب، فطرة ألزمها قلوبهم، ثم أرسل إليهم الرسل، فدَعَوهم إلى الاعتراف له بالربوبية، فمنهم من أنكر بعد المعرفة؛ لأنه لم يكن الله ﷻ ليدعو خلقه إلى الإيمان به، وهو لم يعرفهم نفسه.

الراجح من الأقوال:

أن الفطرة في قوله: (**كل مولود يولد على الفطرة**)؛ أي: **على خلقة يعرف بها ربه**، إذا بلغ مبلغ المعرفة سالمًا في الأغلب خلقة وطبعًا، مهيأ لقبول الدين. وهذا الذي رجحه ابن عبد البر، وقال القرطبي: ((وإلى ما اختاره أبو عمر واحتج له، ذهب غير واحد من المحققين، منهم ابن عطية في تفسيره في معنى الفطرة، وشيخنا أبو العباس)).

وقال ابن عطية: والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنه الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه، ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر، لكن تعرضهم العوارض، ومنه قول النبي (صلى الله عليه وسلم): (**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه**)، فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض، التي هي كثيرة، وقال شيخنا في عبارته: إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول، وعلى تلك الأهلية، أدركت الحق ودين الإسلام، وهو الدين الحق، وقد دل على صحة هذا المعنى قوله: (**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من**

جدعاء؟) يعني: أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة، سليماً من الآفات، فلو ترك على أصل تلك الخلقة لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يتصرف فيه فيجدع أذنه، ويوسم وجهه، فتطرأ عليه الآفات والنقائص، فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع، ووجهه واضح)).

الفصل السادس

المسئولية وأنواعها

المسئولية: هي المقدرة على أن يلزم الإنسان نفسه أولاً، والقدرة على أن يفي بعد ذلك بالتزامه بوساطة جهوده الخاصة.

وقيل: المسئولية حالة يكون فيها الإنسان صالحاً للمؤاخذة على أعماله وملزماً بتبعاتها المختلفة.

ومن أهم المسؤوليات: مسئولية الإنسان أمام الخالق ﷻ، ذكر جمهور المفسرين أن الأمانة تعم جميع وظائف الدين، وان جميع الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان** ﴾، متفقة وراجعة إلى أن الأمانة هي التكليف وقبول الأوامر والنواهي، إن حمل هذه الأمانة يعني مسئولية الإنسان عنها واستعداده لتحمل نتائجها وقبوله بمبدأ الثواب والعقاب المنوطين بها.

أنواع المسئولية:

أولاً: المسئولية الدينية: وهي التزام المرء بأوامر الله ونواهيه، وقبوله في حال المخالفة لعقوبتها، ومصدرها الدين.

ثانياً: المسئولية الاجتماعية: هي التزام المرء بقوانين المجتمع ونظمه وتقاليده. وقيل: هي المسئولية الذاتية عن الجماعة، وتتكون من عناصر ثلاثة هي: الاهتمام والفهم والمشاركة.

ثالثاً: المسئولية الأخلاقية: هي حالة تمنح المرء القدرة على تحمل تبعات أعماله وآثارها، ومصدرها الضمير.

أهم معالم المسئولية في الإسلام:

١- تحمل الفرد مسئولية إصلاح المجتمع: من المبادئ التي قررها الإسلام قصر المسئولية على المسئول وحده، فلا يؤخذ بريء بجريرة مذنب، ولا يشرك أهله فيما اقترفت يداه، أو نسب إليه، وحماية للإمام المسلم من الانزلاق في الظلم جاء قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرى** ﴾.

٢- اشتراك الراعي والرعية: الراعي والرعية يدان تتعاون على خير الأمة ورعاية مصالحها، وكفالة الأمن على حياة الناس وأعراضهم وأموالهم ولا يستقيم أمر الأمة، ولا تتسق شؤونها إلا إذا قام كل من الحاكم والمحكوم بمسئولياته، وأخلص المعاونة لصاحبه.

٣- تكافؤ المسئولية والجزاء: حدد القرآن الجزاء بقدر المسئولية مع إيثار جانب الرحمة والعفو، ومضاعفة الحسنة، قال تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالحَسَنةِ فَلَهُ عَشرُ أمثالِها وَمَن جاءَ بِالسَّيئَةِ فَلا يُجزى إلاَّ مِثلَها**﴾.

فوائد تحمل المسئولية:

١- تُشعر بوجود أداء الأمانة أمام الله وأمام الناس.

٢- الإخلاص في العمل والثبات فيه.

٣- كسب ثقة الناس واعتزازهم به.

٤- يُشعر الشخص المسئول بسعادةٍ تغمره كُلما قام بتنفيذ عمل نافع.

٥- تجعل بُنيان الدولة قوياً غير قابل للتصدع عند التعرُّض للمحن والحُروب.

٦- المسئولية تجعل للإنسان قيمة في مُجتمعه.

الفصل السابع

الضمير

أولاً: تعريف الضمير ووظيفته:

قد يحدث أحياناً أن يجد المرء نفسه أمام مشكلة من المشكلات حين يبحث عن حل لها يجد هناك عدداً من الطرق ويقف الإنسان في مفترق هذه الطرق حائراً لا يدري أي طريق يسلك، وهنا يشعر بقوة خفية تدله علي طريق الخير وتدفعه إلى سلوكه على الرغم مما قد يكون فيه من مشاق وعقبات وتبين له طريق الشر وتدفعه إلى تجنبه على الرغم مما قد يكون في سلوك ذلك الطريق من منفعة تخصه ولذة عاجلة، ويحين يتبع المرء هذه القوة يحصل على راحة نفسية وطمأنينة البال، وإذا خالفها يقع تحت طائلة الشقاء والتعاسة، هذه القوة الخفية النابعة من ذات الإنسان هي ما يطلق علية اسم (**الضمير**).

فالضمير إذن هو: (**قوة ذاتية في الإنسان تأمره بالخير وتنهاه عن الشر**).

ووظيفة الضمير تظهر في نواحٍ ثلاث:

أولاً: قبل أن يقدم الإنسان على العمل.

ثانياً: في أثناء قيامه به.

ثالثاً: بعد إتمام العمل.

ولذلك نستطيع أن نقول أن الضمير يشتمل علي السلطات الثلاث الشهيرة

١- السلطة التشريعية: ومعنى هذا أن الضمير يحث الإنسان على أن يقيم التشريع على أساس من الشرع وأيضاً في التنفيذ والحكم على الأشياء.

٢- السلطة التنفيذية.

٣- السلطة القضائية.

وفي كل يركز الضمير في حثه على التنفيذ والحكم على أساس من هدي الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ثانياً: ماهية الضمير:

اختلفت الآراء حول ماهية الضمير وأهم هذه الآراء ما يلي:

١- إن الضمير غريزة فطرية تولد مع الإنسان بها يستطيع التميز بين الخير والشر كما يستطيع التميز بين الضوء والظلمة، أو بين الأبيض والأسود بحاسة البصر، وهذا يعني أن الضمير غير مكتسب من البيئة والتربية، ويستدلون على هذا بأن القطة مثلاً إذا اختطفت شيئاً من المائدة فإنها تأخذه وتجري بعيداً خوفاً من الإيذاء .لماذا ؟ لأنها تمتلك قوة عرفت بها أنها قد فعلت ذنباً، وحجة هذا الرأي على فطرية الضمير أنه موجود عند الحيوانات العجماء فمن باب أولى أن يكون موجوداً عند الإنسان، ويترتب على هذا الرأي أنه لا حاجة إلى التعليم أو التربية، لان القوة المهذبة المؤدبة موجودة في ذاتية الإنسان توجهه إلى الخير وتمنعه عن الشر، ولا شك بأن ذلك الرأي خطأ، لأننا نشاهد أن الضمائر تختلف باختلاف الأشخاص بل إنها تختلف بالنسبة إلى الشخص الواحد حسب الظروف والأحوال ولو أنه قوة فطرية وغريزة طبيعية لكان واحداً في الجميع وفي جميع الأحوال.

٢- إن الضمير مكتسب من البيئة والمجتمع والتربية: وهذا الرأي نقيض الأول وعليه فإن الإنسان يولد وليس عنده شيء يسمي الضمير إطلاقاً.

٣- والرأي الثالث ينكر وجود قوة تسمى (الضمير) لا فطرية ولا مكتسبة ويقولون إن الضمير أكذوبة كبرى يجب القضاء عليها لأنها تعوق التقدم الإنساني، وهي خدعة من الضعفاء ليقيدوا بها سلطة الأقوياء، وهؤلاء ومن سار على دربهم ينكرون الفضائل ولا يعترفون بشيء إسمه العدل والإحسان أو العفو.

ثالثاً: رأي الإسلام في ماهية الضمير:

رأينا فيما سبق ثلاث آراء في ماهية الضمير، فما موقف الإسلام منها ؟ هل ينكره كالرأي الثالث ؟ أو أنه يعترف به وإذا كان يعترف به فهل يعتبره قوة فطرية أم مكتسبة ؟

إن الإسلام يعترف بالضمير ولا ينكره، والله تبارك وتعالى يقول في محكم التنزيل: **﴿وَلَقَد خَلَقنا الإنسانَ وَنَعلَمُ ما تُوَسوِسُ بِهِ نَفسُهُ﴾**، ورأي الإسلام أن الضمير استعداد

فطري لدي الإنسان، فليس قوة فطرية غريزية يولد بها الإنسان، وليس قوة مكتسبة بلا استعداد سابق، وإنما هو استعداد فطري يولد به الإنسان ويبلور هذا الاستعداد ويظهر أثره بالخير والتهذيب عن طريق البيئة والتربية والموروث الثقافي لدي المجتمع.

رابعاً:عوامل انحراف الضمير:

على الرغم من أن الضمير يبدو وكأنه صوت إلهام إلهي في كيان الإنسان فإنه غير معصوم، وكثيراً ما ينحرف عن جادة الحق والصواب، وعوامل انحراف الضمير تتمثل في:

١– البيئة التي يعيش فيها الإنسان، ففي قري الصعيد عندما يتمسك الناس بعادة الثار وينشأ الأطفال على هذه العادة، لا نجد ضمير القاتل منهم ينزعج أبداً إذا ما ارتكب جريمة القتل انتقاماً أو أخذاً بالثار، بل ربما لا يستريح ضميره إلا إذا ارتكب هذه الجريمة.

٢– العواطف والانفعالات، فالمشاعر غير الواعية كثيراً ما تغمض العين عن الحق والعدل معاً وذلك كالأم التي يدفعها حنانها وشفقتها على ولدها أن تعطيه طعاماً منعه عنه الطبيب وبذلك تؤذي صحته وتزيد علته وتعطل شفاؤه.

٣– العادات السيئة، فالإنسان إذا تعود على أمر وهو فعل شيء قبيح فإن ضميره يتعود على ذلك الأمر، لأن الضمير من طول ممارسة صاحبه لذلك الأمر يأتي عليه وقت يفقد حساسيته بالنسبة إليه، وهذا ما نقول عليه بالتعبير الدارج إن هذا الشخص ضميره نائم أو ميت.

٤– المصلحة الشخصية، كثيراً ما يضعف الضمير أمام المنفعة الذاتية أو المصلحة الشخصية، وإذا ما حاول الضمير أن يرفع صوته فسرعان ما يسكته صاحبه بالحجج والمسوغات الباطلة، مثل أمين المخزن الذي يختلس من عهدته ثم يزور الكشوف الخاصة بالمخزن متعللاً بأن المخزن مليء بالخيرات وأن ما يأخذه لن ينقصه شيئاً وأن الدولة أو صاحب المخزن غني، إلى آخر هذه العلل التي تستعمل كمسكن للضمير.

هذه هي أهم عوامل انحراف الضمير، وللتغلب عليها يجب نشر العلم وتعميم نوره الذي يضيء الطريق فيقضي على الظلام الذي تعيش فيه كثير من البيئات متقوقعة داخل عاداتها

وأعرافها الظالمة وينمي عند الناس المشاعر الواعية والانفعالات اليقظة ويقضي على العادات السيئة، ويغرس في الناس الشعور الجماعي بحيث لا يضحي فرد بمصلحة الكل في سبيل مصلحته هو وعندما ينتشر العلم تتقدم مواكب الخير والحق والجمال وتختفي أشباح الشر والظلم وكل ما هو قبيح من المجتمعات البشرية.

الفصل الثامن

السلوك

تعريف السلوك في ضوء الإسلام: هو ما يصدر عن الإنسان من تصرفات بغض النظر عن تصنيفها حسنة أو سيئة، ويعتبر ما يتوافق مع الشريعة الإسلامية بأنه سلوك حسن، أما ما يخالفها فيكون سلوكاً سيئاً.

إن السلوك الإنساني هو آثار خُلُقية منها محمود ومنها مذموم، وينقسم إلى أنواع شتى منها:

١- ما له أثر من آثار الخُلُق في النفس سواء محموداً أو مذموماً.

٢- ومنه ما هو استجابة لغريزة من غرائز الجسد أو النفس الفطرية ضمن حدود الحاجات الطبيعية.

٣- ومنه ما هو استجابة إرادة لترجيح فكري كأن يرى الفكر مصلحة أو منفعة في سلوك ما فتتجه الإرادة لممارسة أصاب الفكر في ذلك أو أخطأ.

٤- ومنه ما هو من قبيل الآداب الشخصية أو الاجتماعية.

٥- ومنه ما هو طاعة الأوامر والتكاليف الربانية أو غير الربانية، حيث قد تكون ملزمة بأعمال تحقق المصالح والمنافع للناس أو غير ذلك ما يخالف ذلك.

٦- ومنه ما هو من قبيل العادات التي تتأصل في السلوك وقد ترجع هذه العادات إلى موجه أخلاقي أو موجه غرائزي أو موجه تكليفي أو موجه اجتماعي.

٧- ومنه ما هو من قبيل التقاليد الاجتماعية التي تسري في سلوك الأفراد بعامل التقليد المحض أو بقوة التأثير الاجتماعي وقد تكون هذه التقاليد حسنة أو سيئة.

إن الأصل في السلوك الإنساني أنه يهدف إلى تحقيق مطالب جسدية أو نفسية أو فكرية أو روحية، سواء كان ذلك لصالح الجماعة أو أي سلوك لتحقيق مطالب من هذه المطالب، إما أن يكون سلوكياً أو خلقياً وإما أن يكون سلوكاً لا علاقة له بالأخلاق إيجاباً ولا سلباً.

لذلك هناك سلوكيات في الإسلام علمنا الله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام كيفية اكتسابها، وهي كثيرة ونذكر منها على سبيل المثال:

- الحوار وحب الحق وإيثاره.
- التزاور بين الأخوة في الله والتهادي وتبادل الهبات.
- عيادة المريض ومساعدة الناس.
- إماطة الأذى عن الطريق والوقوف مع المحتاج، والتعفف من السلوكيات القبيحة.
- تبسّمك في وجه أخيك وأن تمسح رأس اليتيم وقضاء حوائج الناس.
- إزالة أسباب الخصام بين الناس والمشاركة في الأفراح والأحزان والستر على عيوب الآخرين.
- غض الطرف عن عيوب الناس ، والعناية بالضعيف ورحمة الصغير وتوقير الكبير.
- غض البصر عن الحرمات.

فهذه كلها سلوكيات إسلامية يحث عليها الله -سبحانه- في كتابه العزيز ونبينا الكريم عليه الصلاة والسلام قد أوصى بكثرة الأعمال الطيبة والقيام بها، والسلوكيات الإسلامية تدعم الطاعات والعبادات للمسلم المخلص الذي يبتغي مرضاة الله ويعمل بصدق كما قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**)، لذلك على الإنسان أن يعمل بكل جهد ومثابرة، لأن الإنسان عادة يكتسب الأعمال الطيبة من خلال

ممارسته لسلوك هذا الطريق الصالح، وأن لا يلتفت المسلم للتباغض والتقاطع والشحناء والحسد والتدابر مع الآخرين، لأنه في النهاية هو الذي يخسر كل شيء، كما قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (**أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له، ولا متاع قال: المفلس من أمتي يوم القيامة من يأتي بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم عرض هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وضرب هذا فيقعد فيقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار**).

والآن وقد اتضحت لنا كثير من السلوكيات الإسلامية المنبعثة من الأخلاقيات الإسلامية التي حث عليها ديننا الحنيف القيم عبر كتاب الله ﷻ ، كما مدح الله ﷻ نبيه الكريم : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾، وفي الحديث الصحيح : (**ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق**) ، وبهذه الآية الكريمة وبقول النبي الكريم ﷺ يتضح لنا أن الأخلاق الإسلامية هي جوهر وروح السلوكيات الإسلامية، لأن الأخلاق الإسلامية تجمع مزايا عديدة تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية فهي ضرورية للمسلمين جميعاً بأسلوب يجعلهم يشعرون من خلال معرفتهم بها ضرورة الاهتداء بالقرآن والسنة والاقتداء بشخصية رسول الله ﷺ ، من هنا ندرك أهمية الأخلاق الإسلامية وما تفرزه من سلوكيات إسلامية طيبة تجعل للإنسان منهج حياة متكامل عبر تطوير شخصيته السوية وإرساء الآداب والواجبات والحقوق النفسية والاجتماعية ومع الآخرين.

فهرست المحتويات

الموضوع	الصفحة
القسم الأول: التصوف	
تمهيد: العلاقة بين التصوف والأخلاق.	٢-٣
الفصل الأول: تعريف التصوف ونشأة التسمية.	٤-٩
الفصل الثاني: العوامل المؤثرة في نشأة التصوف والأدوار التي مرّ بها.	١٠-١٥
الفصل الثالث: مصادر التصوف.	١٥-١٩
الفصل الرابع: الفرق بين العابد والزاهد والعارف.	١٩-٢٠
الفصل الخامس: أخلاق الصوفية.	٢٠-٢٥
الفصل السادس: مقامات وأحوال العارفين.	٢٦-٣٤
الفصل السابع: ابن عربي ووحدة الوجود.	٣٤-٣٦
الفصل الثامن: منهج الصوفية في تفسير النص الديني.	٣٧-٣٩
الفصل التاسع: الملامتية.	٣٩-٤٠
الفصل العاشر: نظرية الحلول والإتحاد.	٤١-٤٥
القسم الثاني: الأخلاق	
الفصل الأول: تعريفات علم الأخلاق.	٤٥-٤٧
الفصل الثاني: أهمية علم الأخلاق وفائدته.	٤٨-٤٩
الفصل الثالث: تقسيم الأخلاق.	٥٠-٥٦
الفصل الرابع: العوامل المؤثرة في الخُلُق.	٥٦-٥٩
الفصل الخامس: الفطرة الإنسانية وآراء العلماء فيها.	٦٠-٦٤
الفصل السادس: المسؤولية وأنواعها.	٦٥-٦٦
الفصل السابع: الضمير.	٦٧-٦٩
الفصل الثامن: السلوك.	٧٠-٧٢